رحلة نيقولا سيوفي

1873

بيروت - حلب - كردستان - الموصل - بغداد



اعتنى بنشرها: **تيسير خلف**

التكوين

رحلة
نيقولا سيوفي
1873م

رحلة نيقولا سيوفي

1873م

اعتنى بنشرها تيسير خلف

التكوين

للتأليف والترجمة والنشر

دمشق – حلبوني - الجادة الرئيسية

تلفاكس 2236468 جوال 0944 330989

ص . ب : 11418

WWW.ATTAKWIN.COM

INFO@ATTAKWIN.COM

taakwen@yahoo. com

رحلة نيقولا سيوفي

1873م

اعتنى بنشرها

تيسير خلف

التكوين

تمهيد

يعد نيقولا سيوفي واحداً من أوائل مثقفي وباحثي مدينة دمشق، الذين أتيحت لهم فرصة الاحتكاك مع الحضارة الأوربية في أواسط القرن التاسع عشر، واستفادوا منها أيما استفادة في تكوين وعيهم، مزاوجين بين معطيات الحضارة الناشئة في أوروبا ، وبين جذورهم الحضارية العربية، هذه المزاوجة التي قادتهم إلى تغيير نمط الكتابة والإنشاء، والتفكير، وزاوية رؤية للأشياء، مؤسسين بشكل أو بآخر للوعي العربي المعاصر. ولكي لا يكون الكلام عاماً نذكر من هذا الجيل بالإضافة إلى نيقولا سيوفي كلاً من أبي خليل القباني، ونعمان قساطلي المثقفين المتميزين الثائرين على تقاليد الكتابة والإنشاء والغناء والتفكير التقليدي الذي كان يطبع تلك المرحلة المصيرية من عمر السلطنة العثمانية.

أما نيقولا سيوفي فعبر دراسته للغتين العربية والفرنسية، وعمله كمترجم لسنوات طويلة قبل أن يصبح قنصلاً لفرنسا في أكثر من مكان، استطاع أن يحصل على ذخيرة معرفية نوعية عبر عنها باهتمامات خاصة بالتاريخ العربي وبالآثار

التي تعج بها منطقتنا، فكتب الكثير في هذا المجال، وجمع الكثير من المخطوطات واستطاع أن ينشر دراسة في واحدة من أهم المجلات الاستشراقية المعروفة في العالم وهي المجلة الآسيوية، إضافة إلى وضعه عدداً من الكتب المرجعية المتعلقة بشمال العراق كونه عمل هناك قنصلاً لسنوات عدة.

ترجمته:

ولد نيقولا بن يوسف سيوفي[1] في 12 نيسان «أبريل» من سنة 1829م في مدينة دمشق[2]، في أسرة تعود بجذرها إلى العرب الغساسنة الذين كانوا يحكمون جنوب سوريا قبل الفتوحات العربية الإسلامية، ويذكر عيسى اسكندر المعلوف بناء على معلومات استقاها من بعض وجهاء هذه العائلة أنهم

---

(1) - اعتمدنا في ترجمة نيقولا سيوفي على معلومات شخصية أمدنا بها قريبه السيد ميخائيل سيوفي، ومقالة في مجلة المسرة الدمشقية لنيقولا ميخائيل سيوفي في عدد 15 آذار 1913م، وكتاب تاريخ آل معلوف لعيسى اسكندر المعلوف، ورحلة هنري بنديه عام 1885م التي نقلها إلى العربية الدكتور يوسف حبي وصدرت عن دار ئاراس في أربيل عام 2001م، ومقال لجانين تومين- سورديل في *DETUDES ARABES,* *ARABICA, REVUE 1958* . بالإضافة لما كتبه سعيد الديوة جي في مقدمة كتاب مجموع الكتابات المحررة في الموصل، وهي مقدمة استقت معلوماتها من مخطوطات الموصل (ص: 178). و معجم المطبوعات العربية والمعربة (ص: 1087، 1088). وما جاء عنه في خزانة الوزارة الخارجية الفرنسية بباريس. نقلته السيدة (م. كواشون) أستاذة الفلسفة في جامعة باريس. وما سمعه عنه من بعض المعمرين من أهل الموصل. إضافة إلى *Mayer (Li A) Bibliography of Muslim Numismatics London 1939 (P. 87.88)*.

(2) - اعتمدنا في تاريخ ولادته على ما جاء عنه في (خزانة الوزارة الخارجية الفرنسية) أما في معجم المطبوعات العربية والمعربة فيذكر أن تاريخ ولادته كان سنة 1835م.

استوطنوا دمشق في القرن الثاني الهجري إبان الدولة الأموية، وأن من العائلة من اعتنق الإسلام، واشتهر بصناعة السيوف الدمشقية حتى نكبة تيمور لنك.

درس سيوفي اللغتين العربية والفرنسية بمدرسة الآباء اليعازريين، وكان ذكياً متفوقاً على أقرانه في التحصيل. أتقن اللغتين المذكورتين، ثم درس اللغتين: التركية والإيطالية فأتقنهما أيضاً.

وكان قد اتصل بالمرحوم الأمير عبد القادر الجزائري، فقربه إليه واستخلصه واصطحبه في إحدى سفراته إلى باريس والقسطنطينية. وفي خزانة الوزارة الخارجية الفرنسية بباريس كتب كثيرة متبادلة بين الأمير المذكور والسيد سيوفي.

وكان الأمير عبد القادر الجزائري قد ألف بباريس كتاب «ذكرى العاقل» وأهدى نسخة منه إلى نيقولا سيوفي، وكتب عليها بخط يده: «هذه الرسالة العجالة ألفها كاتب هذه الأحرف بالتماس بعض أحبته بباريس، وأهديت منها هذه النسخة لعوض ولدي العزيز الترجمان، نيقولا سيوفي نفعه الله بالعلم، وفتح له أقفال الفهم، لما له علينا من حقوق الخدمة وحسن الصحبة. في 27 صفر سنة 1289هـ، [الموافق 8 أيار «مايو» 1872م]. والنسخة في خزانة يوسف اليان سركيس.

عمل نيقولا سيوفي مترجماً في السفارة الفرنسية بدمشق في خمسينات القرن التاسع عشر، ومنح الجنسية الفرنسية، بصورة فوق العادة، وذلك في 5 كانون الأول سنة 1866م. وفي سنة 1873م تم تعيينه في القنصلية الفرنسية في بغداد. ثم في سنة 1875م نقل إلى القنصلية الفرنسية بحلب، وبقي فيها إلى سنة 1877م ثم نقل إلى مثل هذه الوظيفة في القنصلية الفرنسية بدمشق.

وفي 4 تشرين الأول سنة 1877م أصبح قنصلاً في الموصل، وأنعمت عليه الجمهورية الفرنسية في 12 تموز 1880م بوسام فارس فرقة الشرف Chevalier de la Légion Honneur.

وفي 5 كانون الأول 1889م عين بوظيفة قنصل من الدرجة الثانية، ومع هذا فقد بقي في الموصل يقوم بوظيفة القنصلية إلى 30 آذار «مارس» 1893م فأحيل إلى التقاعد، وأنعم عليه برتبة قنصل من الدرجة الأولى تكريماً له. وقرر الاستقرار في لبنان وسكن قرية «بعبدا» وبقي فيها حتى أدركه أجله في 20 كانون الثاني سنة 1901م.

وفي هذه المرحلة زار الموصل الرحالة الفرنسي الشهير هنري بنديه عام 1885م والتقى القنصل سيوفي، قد أشار له في أكثر من موضع من رحلته، فقد دعاه السيد نيقولا سيوفي إلى منزله هو ومن معه تناول الغداء، وأهداه نسخة من كتابه

عن الصابئة، أخبره عن اكتشافه مسجد «السلطان لؤلؤ»، وقد كتب بنديه عن سيوفي : «نخرج باكراً لكي نلتقط بعض المناظر للموصل رغم فضول الكثيرين الذين يحيطون بنا، إثر عودتنا نمضي لدى السيد سيوفي الذي يستقبلنا بكل لطف كما كنا نتوقّع.

أصل مسيو سيوفي من دمشق وعمل ترجماناً مدة طويلة للشيخ عبد القادر وكان له صديقاً إنه متبحر باللغة العربية ويمتلك مجموعة ميداليات من أغرب ما يكون».

كان سيوفي مولعاً بالتاريخ وله وقوف على دراسة المسكوكات العربية القديمة، وأبحاث في المسكوكات تدل على خبرة تامة واستقصاء في البحث.

وكان يستعين بنساخين من أهل الموصل ينسخون له الكتب الثمينة التي يجدها في خزائن الكتب الموصلية. فنسخوا له عدة كتب منها باعها لمتاحف أوربا، ومن الكتب الفريدة التي حصل عليها سيوفي هو كتاب «ترجمة عربية لكتاب ديسقوريدس» في تصوير النباتات والحيوانات وخواصها. فقد كلف النساخ السيد مصطفى الصائغ باستنساخها عن نسخة قديمة كانت في المدرسة المحمدية بجامع الزيواني في الموصل، فاعتنى هذا باستنساخها ونقل صورها بغاية الدقة.

ثم إن سيوفي أخذ الأصل والنسخة الجديدة إلى دار يونس بك بن عبد الرحمن باشا الجليلي، متولي الجامع المذكور

فأعجب يونس بك بخط النسخة الجديدة وجمال صورها، فعرض على سيوفي أن يحتفظ للوقف بها، وأن يأخذ سيوفي النسخة القديمة، وهي على ما يقال مكتوبة على رق، فوافق على هذا.

وأهم آثاره المعروفة:

1 - مجموع الكتابات المحررة في أبنية مدينة الموصل ويتألف من مجلدين، جمع في الأول الكتابات العربية، وفي الثاني علق على هذه الكتابة وهو بالفرنسية واسمه: **Notes historiques et exlicatives Sur les inscriptions de la vill de Mossul.**

واعتمد بتعليقاته في هذا على ما سمعه من المعمرين من أهل الموصل، وعلى كتب ياسين بن خير الله الخطيب العمري وخاصة كتابه «الدر المكنون في المآثر الماضية من القرون». واعتمد أيضاً على كتاب منهل الأولياء ومشرب الأصفياء في ذكر سادات الموصل الحدباء . لمحمد أمين بن خير الله الخطيب العمري، وكتاب «الانتصار للأولياء الأخيار» ليوسف بن عبد الجليل الحلبي. وكلها مخطوطة. وانتهى من التعليقات سنة 1881م كما يتضح من التاريخ الذي على المخطوط.

2 - بحث عن ديانة الصابئة واعتقاداتهم وعاداتهم. طبع سنة 1880م في المطبعة الوطنية بباريس وعنوانه بالفرنسية **Etudes Sur la religion des Soubbas.M.N. Siouffi Paris 1880**. وترجم هذا البحث إلى الروسية وطبع في تفليس سنة 1889م.

3 – لائحة تتضمن ما ارتكبه البروسيون في فرنسا من المظالم والسرقات والقساوات أثناء حرب سنة 1870م طبع في بيروت سنة 1871م.

4 – بحث عن ختم السلطان المغولي الجايتو - إنجيتو - خدا بنده. نشر في المجلة الآسيوية بباريس سنة 1869م «المجلد 8: 331 - 345»[1].

وأما أبحاثه التي نشرها عن النقود الإسلامية فقد ذكرها ماير وهي:

-Supplément No. 1 au catalogue de monnaies arabes Pubes Publié en 1879. «Mossoul، 1891، in 40، sans pagination».

ملحق رقم - 1 - لكتلوك النقود العربية المطبوع في سنة 1879م طبع في الموصل سنة 1891.

-Liste des monnaies musulmanes، dressee par N. Siouffi، vice consul de Franceà Mossoul.

قائمة بالنقود الإسلامية.

-Liste des monnaies musulmanes، suite «Mossoul، 1880، 5 Planches».

قائمة بالنقود الإسلامية «خمس لوحات» طبع في الموصل سنة 1880م.

(1) – خدا بنده محمد بن أرغون بن أبغا بن هولاكو (703 - 716هـ). (الدرر الكامنة: 3: 378 - 379. العراق بين احتلالين: 1: 444 - 447).

-**Tableaux de monnaies musulmanes، suit «Mossoul، 1880، 4 P1».**

قائمة بالنقود الإسلامية «أربع لوحات» طبع في الموصل سنة 1880م.

رحلته:

في شهر أيلول من عام 1873 صدر قرار بتعيين نيقولا سيوفي قنصلاً في بغداد، وكان يومها في بيروت يعمل في القنصلية الفرنسة هناك، منذ عام 1861م، أي في العام الذي أعقب الأحداث الأليمة التي ألمت ببعض مدن وجبال بلاد الشام، فغادر بيروت عن طريق البحر إلى طرابلس ثم اللاذقية ثم اسكندرونة، ومن هناك سلك الطريق البري مع حاشية كبيرة تضم عائلته وبعض رجال الشرطة ومجموعة من الأطباء النمساويين وغيرهم، وقد سلك الطريق القديم الذي اعتادت القوافل أن تسلكه؛ فوصل إلى مدينة حلب ومنها انطلق إلى ديار بكر، حيث بدأت رحلته النهرية إلى بغداد، فمر بعشرات القرى والمدن الأثرية، وصادف أناساً من مختلف المشارب، وفاجأته بعض العادات والأوضاع الاجتماعية وبعض المظاهر الطبيعية، فوصل إلى الموصل، ومنها انطلق إلى بغداد. وقد استغرقت رحلته هذه من 9 أيلول «سبتمبر» إلى 1 تشرين الثاني «نوفمبر» 1873م، أي حوالي 52 يوماً. وقد سجل فيها أهم ما شاهدته، وأسماء جميع الأماكن التي مر بها والمسافات بينها. بغية جعلها دليلاً للمسافر من سوريا إلى العراق.

ولعل أهمية هذه الرحلة تكمن في أنها واحدة من الرحلات التي قام بها أحد أبناء المنطقة دون أن يكون هدفه دينياً، على شاكلة الرحلات إلى البلاد المقدسة التي كانت منتشرة أيما انتشار في ذلك الوقت، فالهدف من تدوين هذه الرحلة هو علمي بحت، وهذا هو الجديد في هذا النوع من الكتابة.

وثمة ملاحظة مهمة على صعيد أسلوب صياغة الرحلة، وهي تخلصها من التكلف الإنشائي الذي كان يطبع كتابة ذلك العصر، عبر السجع والطباق والجناس وما شاكل ذلك.

عثرنا على هذه الرحلة عن طريق المصادفة في مجلد مجلة الجنان البيروتية عام 1874م، وهي منشورة على حلقات، ولم ينشر اسم مؤلفها في صدر المقالة بشكل واضح في الحلقة الأولى، بل نشر توقيعه في رسالته إلى رئيس تحرير المجلة.

وقد حصل خطأ في ترتيب أيام الرحلة عاد سيوفي وصححه فيما بعد، ولذلك قمنا باستلال الرسالة الموجهة إلى رئيس التحرير، ووضعناها كمقدمة للرحلة لأنها توضح المقاصد من كتابتها، كما صححنا الأخطاء الواردة في ترتيب أيام الرحلة بناء على ملاحظات كاتبها نفسه، وضبطنا النص وعلقنا على بعض ما جاء فيه، وصححنا بعض المعلومات المغلوطة، محافظين على روح النص وأسلوبه الإنشائي الذي ينتمي إلى القرن التاسع عشر.

وقد حافظنا على مصطلحات الوقت الواردة في النص والتي تمثل بعض الرموز التي تشير إلى أجزاء الساعة توضع على يمين الأرقام مثل:

>: إذا وضعت على يمين الرقم تعني نصف ساعة مثال 9> أي الساعة التاسعة ونصف

≥: إذا وضعت على يمين الرقم تعني ثلاث أرباع الساعة مثال 9≥ أي الساعة العاشرة إلا ربع.

،: إذا وضعت على يمين الرقم تعني خمس دقائق مثال 9، أي الساعة التاسعة وخمس دقائق.

،،: إذا وضعت على يمين الرقم تعني عشر دقائق مثال 9،، أي الساعة تسعة وعشر دقائق.

-: إذا وضعت على يمين الرقم تعني ربع ساعة مثال 9- أي الساعة تسعة وربع.

وهي رموز كانت منتشرة في ذلك الوقت.

وفي ختام هذه المقدمة لا يسعني إلا أن أشكر إدارة المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، وخصوصاً أمين المكتبة الأستاذ عصام شحادات على تعاونه اللامحدود في تقديم المراجع اللازمة لإنجاز هذا الكتاب، كما أتقدم بالشكر الجزيل للوجيه الدمشقي الأصيل ميخائيل بيك سيوفي الذي أطلعني على ما يخص صاحب الرحلة قريبه نيقولا بيك سيوفي من أرشيف العائلة الذي بحوزته، وخصوصاً الصور والمعلومات النادرة التي زودنا بها.

تيسير خلف

دمشق في 20 كانون الثاني 2009م

بمثابة تقديم

بما أنني بارحت مدينة بيروت وقدمت إلى العراق الغربي، حيث عُيّنت كنشلياراً[1] في مدينة بغداد، رأيت أن أرقم بعض مذكرات عما شاهدته في سفري، وعن المراحل التي قطعتها مع مسافاتها.

وعند وصولي إلى مقرّي الجديد خطر لي أنه؛ لربما يحفظ لرواية رحلتي هذه جانب في إحدى زوايا جنانكم أطرحها به، علّها تأتي بنفعٍ ولو جزئياً لمن يقصد زيارة العراق من السياح الشرقيين.

وعندما بلغت فكري لحضرتكم بهذا الشأن بواسطة عزيزي وابن خالي الخواجا ميخائيل سيوفي، صادف عندكم محل القبول والاستحسان، وبناء عليه بادرت بتقديمها إلى حضرتكم[2].

إنما قبل المباشرة بها، يلزمني القيام بحق دين يلذُّ لي وفاؤه، وهو تقدمة التشكر والممنونية لأهالي بيروت المحترمين وذواتها المفخمين، عما نلته منهم من شعائر الوداد والمحبة

---

(1) – *consulaire* بالفرنسية: أي موظف قنصلي.

(2) – المقصود المعلم بطرس البستاني رئيس تحرير مجلة الجنان البيروتية.

بمدة تقارب اثنتي عشرة سنة، صرفتها في مدينتهم متمتعاً بمسامرتهم ورقة حواشيهم، راجياً المولى أن يريني جميعهم بأحسن حال.

الداعي نيقولا سيوفي

في 26 حزيران سنة 1874م

مغادرة بيروت

ركبت الفابور[1] الفرنساوي المدعو تانايس بعد وداع أصدقائي وخلاني نهار الثلاثاء الواقع في 9 أيلول سنة 1873م الساعة الخامسة بعد نصف النهار، وبعد نصف الليل أقلعنا من ميناء بيروت[2] ونهار الأربعاء في 10 منه باكراً حللنا ميناء طرابلس[3].

---

(1) - vapeur بالفرنسية تعني البخار وقد اطلقت أصلا على المراكب البخارية، وكانت تستخدم في اللهجات العربية بمعنى المركب، السفينة، ومن ثم القطار، وأخيراً موقد الكاز.

(2) - كتب نعمان قساطلي عام 1895 يصف بيروت في كتابه حسر اللثام: (بيروت هي أشهر مدائن الشام وأهمها وأعظمها لأنها مركز تجارة البلاد برمتها ومركز العلوم والمعارف فيها وقد نمت في السنوات الأخيرة نمواً سريعاً فادخلت إليها معظم ادوات التمدن الحديث وأنشأت المدارس العالية التي لا نظير لها في الشرق وتجددت فيها الشوارع والحدائق والبنايات الجميلة وكثر عدد سكانها حتى صار نيف ومائة وعشرون ألفاً. وفي بيروت المطابع الكبرى عدد كبير فهي تطبع الكتب لكل بلاد الشام ولسائر المشرق. وجرائد الشام عن بكرة أبيها تطبع في هذه المدينة الزاهرة خلا ثلاثة هي طرابلس في المدينة التي تسمى باسمها والفرات في حلب وسورية في دمشق والجريدتان الأخيرتان من جرائد الولايات الرسمية. وأكثر أهل بيروت من النصارى من طائفة الروم الأرثوذكس وفيها عدد كبير من كل الطوائف الأخرى ويقرب المسلون فيها من ثلاثة أثمان عدد أهلها وهي مركز الولاية التي تسمى باسمها وشهرتها تغني عن الإسهاب في مثل هذا الفصل الموجز).

(3) - طرابلس من أجمل المدن البحرية منظراً ولها مقام كبير لأنها الثانية في مدن السواحل السورية بعد بيروت ولها تجارة واسعة ولأهلها شهرة في الجد والإقدام وميناؤها جميل أمين يضرب المثل في جمال مناظره والروائح الزكية التي تتضوع من حدائقه وهي متصرفية من ولاية بيروت (قساطلي، حسر اللثام).

وكانت مدة مسيرنا نحو > 5 [خمس ساعات] فنزلنا إلى البرّ وصرفنا النهار في الجانب المدعو بالمينا الكائن على شاطئ البحر، وفي المدينة التي تبعد عنه نحو نصف ساعة.

ومما شاهدناه هناك خارج المدينة محل المولوية، وهو مكانٌ ذو مركز جميل مشرف على وادٍ ترى فيه أمواه رائقة تظللها أشجار ملتفة. وبعد أن صرفنا هناك برهة من الزمان رجعنا عند العصر إلى السفينة، وكانت ليلة شديدة الحر؛ حتى أن الكومندان[1]، أمر بنصب مائدة الطعام على ظهر المركب.

والساعة 11 قبل نصف الليل بساعة أقلعنا من ميناء طرابلس، وصباح الخميس في 11 منه أرسى المركب في ميناء اللاذقية[2]، وبقينا بها إلى المساء. والساعة 8 بعد الظهر

---

(1) - *commandant* تعني هنا ضابط في البحرية.

(2) - اللاذقية مدينة عريقة على ساحل المتوسط قدمت للبشرية أول أبجدية مكتوبة في العالم وهي أبجدية أوغاريت ، واسم اللاذقية ظهر في الفترة الإغريقية و تحديداً في عهد خليفة الاسكندر سلوقس نيكاتور الذي بنى المدينة على أنقاض المدينة الفينيقية أطلق عليها اسم زوجته أو أمه لاتاكيا أو لاوديسيا حوالي عام *290* قبل الميلاد، وقد تحول هذا الاسم عند الفتح العربي الإسلامي عام 637 ميلادية إلى اللاذقية، وقد أطلق عليها قبل ذلك في أحد الفترات الحضارية التي تعاقبت على المدينة اسم رامينا، وقد كتب قساطلي عن اللاذقية ما يلي: (اللاذقية، مركز متصرفية باسمها، وتعرف بكثرة النصيرية فيها وهم يقطنون الجبال التي تلي هذه المدينة كما مر، ولها شهرة قديمة).

خرجنا من هناك، وصبحية الجمعة في 12 منه حللنا ميناء الإسكندرونة[1].

فنزلنا حالاً إلى البر وباشرنا باستحضار لوازم السفر كالمركب الذي يدعى بتخت روان[2] وغيره، وتركنا الإسكندرونة نفس ذاك النهار الساعة الثانية بعد الظهر، والساعة الخامسة وصلنا إلى بيلان[3].

وكانت مرحلتنا من الإسكندرونة إليها ثلاث ساعات فقط، وبيلان قرية كبيرة بسفح جبل على وادٍ يجري بأسفله ماء عذب، ومناخها جيد، فنزلنا في خان معدٍ للمسافرين وبتنا ليلتنا فيه، ومن هذه القرية تبتدئ اللغة الكردية عند أكثر الأهالي بتلك الجهة.

---

(1) – وصف قساطلي الإسكندرونة عام 1895 كما يلي: (اسكندرونة وهي مدينة صغيرة لها ميناء بديع ترسي فيه البواخر، ولهذه المدينة الصغيرة أهمية كبرى لأنها ميناء حلب وما يليها، تمر فيها الضائع الصادرة والواردة ولهجة أهلها تقرب من لهجة حلب في الكلام). وتاريخياً بناها الإسكندر الأكبر عام 333 ق.م تخليداً لانتصاره على الفرس. كانت قديماً مركز للتجارة بين الشرق والغرب، واستخدمت منفذاً بحرياً لسكان مدينة حلب والشمال السوري. في عام 1939 قامت فرنسا، السلطة المنتدبة في سوريا وقتئذ، بالتنازل عن لواء اسكندرونة لتركيا. ويعتقد بأن ذلك حدث لضمان تأييد تركيا للحلفاء في بداية الحرب العالمية الثانية. خالفت فرنسا بذلك صك الانتداب الذي يوجب على السلطة المنتدبة الحفاظ على الأراضي التي انتدبت عليها. لم تعترف سوريا قط بضم تركيا للواء.

(2) – عبارة فارسية تعني بالعربية السرير الذي يحمل عليه المريض أو المسافر.

(3) – تقع بيلان جنوب اسكندرونة وفيها مضيق دبلي شهير وقعت عنده معركة بيلان الشهيرة بين قوات محمد علي باشا والي مصر وقوات السلطنة العثمانية في 29 حزيران 1832م هي الجولة الثالثة في الحرب المصرية العثمانية في عهد محمد علي باشا. ويصل مضيق بيلان سهل أنطاكية وخليج اسكندرونة.

السبت في 12 أيلول سنة 1873م

سرنا من بيلان الساعة الثالثة بعد نصف الليل، وبعد ساعة بانت لنا بحيرة أنطاكية وسهل يدعى العمق. وكان من قصدنا أن نجعل طريقنا على أنطاكية[1]، لنراها، لكننا عدلنا عن قصدنا عندما تبين لنا أن التعريج إليها يستدعي زيادة نهار واحد في السفر.

والساعة السابعة صباحاً وصلنا إلى خان يدعى ديار بكر لي[2]، وهو في أول السهل المذكور، وهناك يوجد ماء عذب رائق فنزلنا فيه لنصرف ساعات شدة الحر.

أما الطريق من بيلان إليه فكان أكثره جبالاً مكللة بالأشجار يسمونها جبال بيلان. وكنا نصادف مراراً قطعان الغنم والماعز الوافرة العدد، وكثيراً من القوافل بعضها متوجه إلى حلب والبعض آتٍ منها إلى الإسكندرونة.

(1) - كتب نعمان قساطلي عن أنطاكية في كتابه حسر اللثام ما يلي: (أنطاكية وهي التي بناها ملوك المملكة السلوقية التي حكمت البلاد من بعد الاسكندر ذي القرنين، وظلت هي المدينة الأولى في البلاد وعاصمة الملك إلى أيام الفتح الإسلامي وكانت أعظم مدائن الشرق وأهمها في العلوم والمتاجر والمقام السياسي، فتوالت عليها النكبات ودمرتها الزلازل مراراً حتى انحطت وصارت إلى حالها الحاضرة وليس لها اليوم ذكر بين المدائن الشهيرة).

(2) - أي الخان الذي يؤدي إلى مدينة ديار بكر، أو الواقع على طريق ديار بكر.

ثم ركبنا الساعة الثانية بعد الظهر ودخلنا سهل العمق، الذي يشبه سهل البقاع، إلا أنه قليل القرى والعمران وشديد الحر، والساعة 4 استرحنا بجانب جسر يدعى جسر مراد باشا، وهو على ما قيل مسمى باسم بانيه.

وبعد نصف ساعة رحلنا من هناك ووصلنا الساعة السادسة إلى عين البيضاء[1]، وهي قرية صغيرة على رابية، فنصبنا خيامنا بإزاء عين ماء قريبة منها وبتنا هناك، وكانت مسافة مرحلتنا من بيلان إلى عين البيضا سبع ساعات ونصفاً.

الأحد في 14 ايلول سنة 1873م

سرنا من عين البيضاء الساعة الأولى بعد نصف الليل، والساعة الثالثة مررنا بحمام ماؤه فاتر كبريتي يدعى حمام القدرة، فدخلنا إليه وإذا هو حوض مربع الشكل ضمن حجرة مسقوفة، يسيل ماؤه من وسط الحوض ويجري منصرفاً إلى الخارج.

---

(1) – ثمة قرية تتبع محافظة اللاذقية السورية اسمها عين البيضا اليوم.

والساعة 4 مررنا بقرية عفرين[1]، وفيها نهر ماء جارٍ. والساعة الخامسة على قرية معران وعند العامة تدعى ضيعة العرب، وبعدها بعشر دقائق نظرنا عن يميننا قرية مهدومة يسمونها برزة وهي في منتصف الطريق بين عين البيضا وقرية ترمانين[2].

ونحو الساعة 8 دخلنا عقبة في الجبل يستصعب ركوب التخت فيها، مسافتها تقارب عشرين دقيقة. ومنها انحدرنا إلى سهل يسمونه بلَدَ الحلفاء. والساعة >8 مررنا بالقرب من قرية خرزة، وكانت عن شمالنا، فتركنا جماعتنا ودخلنا إليها، فوجدنا جانباً منها خراباً وبها أبنية قديمة مسيحية، وعلى أسكفة أبوابها صلبان منقورة في الأحجار نظير جملة إشارات كنا رأيناها في حوران.

وكانت عن يميننا قرية الدانا[3] عن بعدٍ.

---

(1) - عفرين إحدى مدن محافظة حلب اليوم، وهي مركز منطقة عفرين، تشكل أقصى الزاوية الشمالية الغربية من الحدود السورية التركية. يحدها من الغرب سهل العمق في لواء اسكندرونة و النهر الأسود.

(2) - ترمانين هي بلدة صغيرة تبعد عن مدينة حلب حوالي 45 كيلومترا إلى الشمال الغربي، في الطريق المؤدي إلى باب الهوى وأنطاكية، وترتبط البلدة إدارياً إلى ناحية الدانا ومن ثم منطقة حارم ومنها إلى محافظة إدلب وفيها العديد من الآثار القديمة والمميزة العائدة للعصور اليونانية والرومانية.

(3) - تقع قرية الدانا على طريق باب الهوا الذي يعتبر المعبر بين محافظة إدلب الحالية ولواء اسكندرونة، فيها مدافن كثيرة منحوتة في الصخر، في أعلاها بناء عجيب الشكل على أربعة أعمدة كان يعلوه أهرام اندثر معظمه.

والساعة 9 نزلنا في قرية ترمانين واسترحنا مدة ساعتين في بيت الشيخ، ثم ركبنا وبعد الظهر بثلاثة أرباع الساعة حللنا في قرية تقاط، والأتراك يسمونها أنجير كوي أي قرية التين. وبتنا هناك تحت الخيام.

ومسافة المرحلة من عين البيضاء إلى تقاط كانت الساعة، وطريقنا كانت غير مستقيمة والجبال جرداء بخلاف الجبال التي نظرناها سابقاً.

حلب

الاثنين في 15 أيلول سنة 1873م

سرنا من تقاط الساعة الأولى بعد نصف الليل، وصباحاً الساعة 7 وصلنا إلى مدينة حلب[1]، وكانت المسافة من تقاط إليها 6 ساعات فقط والطريق سهل، فنصبنا خيامنا في أحد البساتين القريبة من المدينة بجانب نهر قويق[2] الذي ترتوي منه بساتين المدينة.

أما حلب؛ فهي مدينة كبيرة جميلة تسر القادم إليها عن بعد، بحسن مناظرها الطبيعية وبساتينها وغياضها. وأبنيتها جميعها من الحجر المنحوت، وأكثر طرقاتها وأسواقها واسعة نظيفة بالنسبة إلى غيرها من المدن الشرقية.

---

(1) - وصف قساطلي حلب عام 1895 كما يلي: (حلب وهي مدينة شهيرة كبيرة لها تجارة واسعة ولأهلها خبرة في صناعة النسيج وهي مركز ولاية باسمها ويبلغ عدد سكانها نيف ومائة ألف نفس معظمهم يتكلمون العربية والتركية وأكثرهم من المسلمين وفي نواحي حلب سهول واسعة وبقاع خصبة يقطنها العرب الرحل وهي لو وزعت وأتقنت لجاءت بالحاصلات الكثيرة).

(2) - وهو نهر مدينة حلب الشهير.

وبعض الذوات باشروا ببناء مساكن في البرية خارج المدينة في محل يدعى العزيزية[1]، وهي بيوت مسقوفة الدور، وكل منها منفصل عن الآخر تحدّه الجنان من كل الجهات ومتقنة البناء، تروق للنظر تشبه مساكن بيروت، فدخلنا بعضها وتلقانا أربابها بكل لطفٍ وأنسٍ جزاهم الله عنا خيراً، ومتعهم بهناء السكن في الدارين.

ولبثنا في حلب بضعة أيام لاستحضار الأشياء اللازمة للسفر، ثم فارقناها وذلك نهار الاثنين في 22 أيلول سنة 73.

وسرنا الساعة >2 بعد نصف الليل، والساعة 6 مررنا بجانب قرية صغيرة تدعى باب الليس، والساعة 7 نزلنا عند قرية حاسين ويجانبها نهر ماء يدعى الساجور[2]، وهو الذي جلبته الحكومة هذه السنة إلى حلب لأن مياه نهر قويق نقصت كثيراً بهذه الأيام.

وبعد أن استرحنا هناك مقدار نصف ساعة ارتحلنا، وبعد ربع ساعة صارت قرية تركمان بارج عن شمالنا في علا تلٍ قريب، والساعة 12 مررنا بجانب قرية بالوظة والساعة 12

---

(1) - العزيزية الآن حي من أحياء مدينة حلب الشهيرة، ومركز تجاري وعمراني كبير.

(2) - نهر الساجور طوله 74 كم ينبع من تركيا ويخترق الحدود السورية في عين عزة في محافظة حلب، ويسير في الأراضي السورية، وينتهي النهر باندماجه مع نهر الفرات من الضفه الغربيه.

بعد الظهر حللنا بجانب قرية وقف ونصبنا الخيام هناك للمبيت.

والمسافة من حلب إلى قرية وقف عشر ساعات ونصف، والطريق جميعه سهل كثير القرى، إلا أنها صغيرة لا تروق للناظر.

الثلاثاء في 23 أيلول سنة 1873م

سرنا من قرية وقف الساعة الثالثة بعد نصف الليل والساعة السادسة عند شروق الشمس مررنا في قرية خل أوغلي والساعة السابعة في قرية باب ليمون وبعدها بعشرين دقيقة في قرية حاجي ولي والساعة الثامنة في قرية أوكوز أولدران، وبعدها بخمس وعشرين دقيقة في قرية قره كوز، والساعة التاسعة قطعنا نهر الساجور المذكور آنفاً ونزلنا بجانبه طلباً للراحة. وكانت بالقرب منا قرية كنيسة. والساعة العاشرة إلا عشرين دقيقة ركبنا من هناك، والساعة 11 أي قبل الظهر بساعة حللنا في خارج قرية زنبور، وهناك نصبنا الخيام.

والمسافة من قرية وقف إلى قرية زنبور سبع ساعات وثلث الطريق كله سهل وأهالي القرى يتكلمون اللغة التركية دون خلافها.

الأربعاء في 24 ايلول سنة 1873م

ارتحلنا من زنبور الساعة - 2 بعد منتصف الليل، ومررنا بقرب بعض قرى أخفاها عن أعيننا ظلام الليل، والساعة 7 مررنا بجانب مزار يعلوه قبتان ويسمى مزار الشيخ محمود، وبعده بخمس دقائق قطعنا نهر كالرين على جسر مسمى باسم النهر كان مهدوماً على ما قيل لنا، وجدد بناؤه هذه السنة [1873م]، فنزلنا هناك للراحة، ورأينا بقرب الجسر مغائر منقورة في الصخور؛ من جملتها مغارة واسعة قائمة على خمس دعائم من نفس الصخر، وفي دائرها مداخل كأنها كانت مقبرة في زمن الأولين، الذين كانوا يدفنون موتاهم ضمن الجبال، ولهذه المغارة نافذة في وسط سقفها.

والساعة 7 قمنا من هناك، والساعة 9 مررنا بجانب قرية تلميان، وقبل وصولنا إليها بنحو ساعة لاحت لنا عن بعد براجيك وقلعتها بسفح جبل أمامنا. والساعة 10 حللنا شاطئ نهر الفرات، ونظراً لقلة الأمطار في هذه السنة كان ماؤه ربع ما كان في السنين الماضية، فقطعناه بواسطة سفائن ذات شكل غير مألوف في غير بلاد، لأنها كانت مرتفعة جداً من جهة المؤخر وواطئة من جهة المقدم، حتى عندما تلاصق الشاطئ تصير بمساواة سطح البر، وهكذا تمر عليها الدواب مطلقاً محملة، وربما تجفل عند مرورها فتطرح الأحمال في

الماء كما حصل لنا، حيث سقط لنا صندوق بسبب ذلك في الماء وتلف أكثر ما ضمنه. فالأوفق إذ ذاك شحن كلٍّ وحده.

وهذه السفائن التي يسمونها قوائق غير متقنة العمل ولها ملاح واحد، وعندما انتهينا إلى الضفة الثانية من النهر انزلوا الأحمال إلى الجمرك، وهناك رأينا عدداً غفيراً من العالم، وكلهم ينظرون إلينا نظر المتفرج.

فنصبنا خيامنا بقرب باب أورفا[1] وكان من حديد، وعلى جوانبه وبأعلاه كتابات عربية لم يسمح لنا الوقت بنسخها، وكان على أحد مصرعي الباب الحديدي هذه الكلمات: «الملك الأشرف قايتباي عز نصره»[2]. وهذا كان أحد ملوك مصر قبل استيلاء الدولة العثمانية عليها، ملك سنة 872 وتوفي سنة 901 للهجرة.

أما براجيك فهي قصبة متوسطة المقدار ضيقة الطرقات عديمة النظافة، وأسواقها مظلمة وغبارها كثير، والمسافة من زنبور إليها نحو سبع ساعات ونصف، والطريق أكثره سهل، وتكلم أهل تلك القرى باللغة التركية.

---

(1) - أورفا هو الاسم الحالي لمدينة أورهاي أو الرها وهي إحدى عواصم الثقافة الآرامية السريانية وهي الآن ضمن أراضي الجمهورية التركية.

(2) - يبدو أن هذه الكتابة تؤرخ للفترة التي انتصر فيها الأشرف قايتباي الذي أرسل قائده يشبك الدوادار إلى هذه المنطقة للقضاء على الامارة الدلغارية التركمانية بقيادة شاه سوار الذي تمرد على سلطة المماليك حوالي عام 882 هـ، 1477م.

الخميس في 25 ايلول سنة 1873م

تركنا براجيك الساعة 3 بعد نصف الليل، والساعة 7 نزلنا عند بئر منقورة في صخرٍ تدعى سبيل فارس باشا، حيثما تجتمع فيها مياه المطر لارتواء عابري السبيل، ولكن لم نجد فيها ماءً فانحدرنا إليها بواسطة درج طلباً للظل والراحة، لأن طريقنا كان أكثره أودية.

وبعد أن تناولنا الطعام تركناها الساعة 9 وابتدأنا بالسهول، والساعة 10 مررنا على قرية مغربي، وقبل الظهر بعشر دقائق مررنا على قرية صغيرة تدعى مزرعة، وبعد [ذلك] بربع ساعة حللنا في المحطة، وهي قرية قارنه حوشي، وأفهمنا شيخها بأن الأهالي تأتي من براجيك إليها، وحتى ديار بكر جميعهم أكراد ولغتهم كردية، ولكن كانوا يخاطبوننا بالتركية ويا لها من تركية ردية.

وكان من قصدنا أن نتوجه من براجيك إلى أورفة لنراها، ولكن عندما علمنا الفرق بزيادة الوقت عدلنا عن هوانا وأخذنا طريق هواك. والمسافة من براجيك إلى قارنة حوشي ساعة >7.

الجمعة في 26 ايلول سنة 1873م

ارتحلنا من قارنة حوشي الساعة -2 بعد نصف الليل، وكانت طريقنا غير مستوية. والساعة 6 كانت قرية طونه لي عن يسارنا، والساعة 6.30 نظرنا قرية طارطاش عن يميننا، والساعة 7.30 حللنا في بساتين هواك على نبع نهر كثير الأسماك لعدم معرفة الأهالي بصيده، وهو يروي تلك الغياض النضرة.

والساعة 2 بعد الظهر ركبنا من هناك، وبعد مضي ربع ساعة مررنا في قرية هواك، وكانت قرية قره قاش عن يميننا، والساعة 2.30نظرنا عن يميننا قرية جاطاغ، والساعة -4 مررنا بالقرب من قرية بوغديك، والساعة 6 حللنا في قرية تتريش للمنامة.

وكانت المرحلة من قارنه حوشي إليها >9 ساعة.

السبت في 27 ايلول سنة 1873م

قمنا من تتريش الساعة >1 بعد نصف الليل، والساعة 6 عند بزوغ الشمس مررنا بحذاء قرية طاطوق، والساعة 7 نزلنا في قرية قره جون للراحة، والساعة 8 تركناها، والساعة 10 حللنا في بساتين مشمشين للمبيت، وهذه القرية تنعش المسافر بعد مقاساته حر الشمس وأتعاب السفر، بعذوبة

مياهها ومنظر رياضها. والمسافة من تتريش إليها 8 ساعات وأكثر الطريق سهل.

الأحد في 28 ايلول سنة 1873م

ودعنا[1] مشمشين الساعة 12 نصف الليل، وكنّا عوّلنا صرف ذاك النهار فيها طلباً للراحة، ولكن رحيلنا منها كان لاعتمادنا على قول المكارية[2] بصرفه في سواريك، لأنها أنزه وأجمل من مشمشين.

فالساعة ١،، مررنا على جسر صاقب أفندي المبني على نهر جارٍ، والساعة السادسة إلا عشرة دقائق مررنا أيضاً على جسر نهر سواريك، والساعة 7 حللنا في سواريك فكانت مرحلتنا من مشمشين إليها 6 ساعات.

وبعد أن حللناها رأيناها أكبر من مشمشين ذات أسواق وجوامع، إلا أنها كثيرة الأوساخ والأقذار ليس بها ماء جارٍ ولا بساتين. فتبين لنا إذ ذاك قصد المكارين، وهو أن الشعير فيها أرخص مما هو في تلك، فلأجل صالحهم الذاتي الزهيد

---

(1) – في الأصل: أودعنا، وكان وقد لاحظنا أن كتاب ذلك العصر كانوا يضمون ألفاً لبعض الأفعال التي تبدأ بحرف الواو، مثل ودعنا، وعدنا وغير ذلك.

(2) – المكارية هم أصحاب حيوانات الكراء أي حيوانات النقل التي يستأجرها عادة المسافرون وهي البغال والأحصنة والحمير. وهذه المهنة كانت رائجة في تلك الأزمنة وقلما صادفنا رحلة لعربي أو أجنبي لم يذكر المكارية.

عملوا معنا ما عملوا، فضلاً عن عدم اكتراثهم براحة المسافر ومداركة الأحمال «أصلحهم الله».

الاثنين في 29 أيلول [سنة 1873م]

تركنا سواريك الساعة 2 بعد نصف الليل والساعة 5 نزلنا بجانب قرية أوج اكوي وهناك رأينا فعلة كثيرين مجتمعين للشغل في طريق مركبات والساعة 5 قمنا من هناك والساعة 10 نزلنا بجانب طاحون تدعى كادرك دكرماني، والساعة 3 بعد الظهر سافرنا من هناك، والساعة 5 حللنا بجانب خان قرية قره باغجه على نبع ماء عذب باردٍ، فكانت المسافة من سواريك إليه عشر ساعات.

ديار بكر

الثلاثاء في 30 ايلول [سنة 1873م]

تركنا منزلنا الساعة 3 بعد نصف الليل وكان طريقنا وعراً مدةً 3 ساعة، والساعة >5 دخلنا في سهول ديار بكر ورأينا عن بعد في صدر ذاك السهل جبلها العظيم الممتد رأسه إلى السحاب، والساعة 6 أخذنا راحةً في محل هناك، والساعة >6 قمنا منهُ، والساعة 7 نزلنا عند نبع ماء عذب بسبب سقطة حدثت لنا عن ظهر الحصان، لكن كانت على سلامةٍ، ولبثنا إلى الساعة 9.

وعند الظهر نزلنا في بستان على حافة نهر يدعى هوار جابري، وبقينا إلى > الساعة والساعة 3 حللنا في ديار بكر[1]، ونصبنا خيامنا في بستانٍ يدعى بالي باغجه في محلّة كول ياني بجهة باب الروم أحد أبواب المدينة الأربعة، وكانت

---

[1] - ديار بكر أصلاً هو اسم منطقة دعيت بهذا الاسم في فترة ما قبل الإسلام لنزول قبيلة بكر بن وائل فيها، أما الآن فهذه التسمية تطلق على مدينة آمد ذات الماضي السرياني العريق وهي اليوم عاصمة محافظة ديار بكر، وثاني أكبر مدينة في منطقة الأناضول جنوب شرق تركيا بعد عينتاب يسكن ديار بكر الآن غالبية كردية.

مسافة مرحلتنا هذه من خان قره باغجه إلى ديار بكر تسع ساعات وعشر دقائق.

وفي اليوم الثاني أي الأربعاء الواقع في 1 تشرين الأول حضر لمشاهدتنا جناب الخواجا أونورة[1]، يونس، الصديق القديم الذي صرفنا معهُ مدةً في ترجمة قونسلاتو فرانسا[2]، بدمشق منذ اثنين وعشرين سنة، وهو الآن وكيل قنسلانو فرنسا في ديار بكر. فسررنا بمشاهدته وكلفنا للتوجه إلى دارهِ والنزول عندهُ، فتوجهنا إلى محله الكائن خارج البلدة على بعد عشرين دقيقة منها، وهو ذو مركز مرتفع ونظارة جميلة لأنهُ يشرف على برية المدينة ذات المروج والغياض النضرة المروية من دجلة، الذي يحوطها كأنهُ يتولى صيانتها، فضلاً عن توليد نباتها وإحياء مزروعاتها بمياههِ السلسبيلية.

أما مدينة ديار بكر المدعوة قديماً بآمد، فهي مرتفعة المركز، وأكثر أبنيتها من الحجر الأسود ومحاطة من جميع أطرافها بسورٍ متقن البناء، وهو إلى الآن بحالة محفوظة نادرة في غير بلاد، حتى أن القادم إلى المدينة يراها عن بعدٍ كقلعة، ونظرنا[3]، في بعض جهات السور كتابات كوفية من أيام الخلفاء العباسيين.

---

[1] - صيغة تفخيم فرنسية *Honoré* بمعنى المفخم أو المبجل أو المعظم.

[2] - القنصلية الفرنسية.

[3] - أي شاهدنا.

وعندما حللنا في منزل جناب الخواجا المومأ إليه، تعاطينا أمر الطوف «المعروف عندهم بالكلك»[1] وهو لفظ فارسي» لسفرنا في دجلة، وبعد أن استحضرنا»[2] مَنْ عندهُ الإلمام بهذا، قرر لنا أن ماء النهر قليل في هذه السنة فيجيب صنع طوفين صغيرين عوض واحد، لتسهيل الجري، فأتفقنا معهُ على ذلك بشرط إتمامهما بأقرب وقت، وإيصالنا إلى الموصل لا إلى بغداد، حيث فهمنا أن أهالي الموصل أعلم من أهالي ديار بكر بمسير النهر من مدينتهم إلى بغداد.

في انتظار الكلك!

وهكذا صرفنا مدة ستة أيام في ديار بكر لانتظار الطوف «الكلك»، الذي نرغب أن نعطي بعض الشرح عنهُ لأنهُ ليس مألوفاً في أكثر الجهات، لكنهُ قديم الاستعمال في العراق، وهيرودت أبو التاريخ المولود سنة 484 ق.م تكلم عنهُ عند ذكر سياحته في بلاد بابل.

فنقول: إن الكلك هو مَركَبٌ مُركَّبٌ من قربٍ ينفخ فيها لدرجة معلومة متوسطة، ثمَّ يشدُ بعضها إلى بعضٍ شداً محكماً كهيئة سطحٍ، وتجعل أفواهها إلى الأعلى، ثم تستر

(1) - الكلك باللغة الكردية يعني نوعاً خاصاً من الأطواف التي تستعمل للنقل.
(2) - اي أحضرنا

بحشائش خضراء لحفظ رطوبة الجهة العليا منها التي لا تغمر بالمياه، وفوق الحشائش تمدُ أخشاب من أصناف الدفوف أو غيرها، مما يقصد نلقها وبالأجرة من محلٍّ إلى آخر، وعلى هذه الأخشاب ينصبون مظلة في الوسط ليتظلل بها المسافر، ويضعون البضائع على الجوانب، ومن جهة المقدم والمؤخر تكون المجاديف[1] مع الملاحين، حيث بواسطتها ويمساعدة جري الماء يسوقونهُ إلى المحل المقصود، وفي أثناء الطريق عند اشتداد الحرّ يلتزمون كل ساعة أو نصف ساعة بأن يرشوا الماء على القرب حذراً من التشقق فيخرج منها الهواء، وإذا نفد من أحدها يأخذ أحد الملاحين قصبة، وبواسطة إدخالها في فم القربة غب[2] فتحه ينفخ مجدداً، ثم يربطهُ كالأول، وعلى هذا النمط تصنع هذه المراكب، ومنها ما يُعمل من مائة قربة، ومنها من ألفٍ بحسب الإرادة[3] ومساعدة الماء، وهكذا يحملونها أثقالاً جسيمة ويستخدمونها في نقل البضائع وإرسالها إلى الجهات المجاورة النهر.

أما الطوفان اللذان بُنيا لنا؛ فكان كلٌّ منهما من مائة وخمسين قربة نظراً لقلة الماء، وكانت المظلة من قوائم خشبية

---

(1) - في الأصل: المقاذيف.
(2) - غب تعني بعد.
(3) - أي الرغبة.

مجللة من أعلاها ومن جميع أطرافها باللباد والقماش المشمع، ولها على الجانبين بابان وكانت الملاحون أكراداً.

وقبل أن نبتدي برواية سفرنا في الكلك يقتضي أن ننبه القارئ بأن المسافات التي سنذكرها في سفر الأطواف من ديار بكر إلى بغداد، لا يمكن الاعتماد عليها كمسافاتٍ حقيقية يعتمدها كل مسافر، لكن يوجد بذلك تفاوت عظيم لأنهُ يتعلق بالأمواه.

والآن نرجع إلى ذكر السفر فنقول:

في مساء الأحد الواقع في 5 تشرين الأول سنة 1873م، قبل سفرنا بيوم حدثت رعود وبروق وتغير الجو وسقط المطر إلى الصباح فخشينا من العاقة.

رحلة نهرية

الاثنين في 6 تشرين الأول سنة 1873م

راق الفلك واعتدل الهواء. فباشرنا عند الظهر بالتأهب للسفر، وغب تنزيل الطوفين إلى النهر نقلت الأحمال وباقي أمتعتنا إليهما، وتوجهنا نحن أيضاً وبرفقتنا الخواجا يونس والسيدة قرينتهُ إلى شاطئ النهر حيثما ودعناهما وتشكرنا من حسن استقبالهما ولطفهما ومودتهما، وبعد التوكل على

العزة الإلهية نزلنا في الطوف الساعة >5 بعد الظهر، أي قبل الغياب بنصف ساعة، وبعد بضع دقائق مررنا من تحت جسر مركوز[1]، على جملة قناطر، وبعد ذلك بقليلٍ مسَّتِ القرَب قاع النهر، وكان يُسمع لها صوت كصوت رعدٍ بعيد، وذلك من الهواء المنحصر، فنزل إذ ذاك الملاحون وأخذ بعضهم يدفعهُ من الوراء وبعضهم يسحبهُ من الأمام حتى طفا وأخذ يسعى كالأول.

وكان مسير النهر في وادٍ ليس بعميق، وأكثر المزروعات على ضفتيه كانت من البطيخ الأحمر المسمى عنده رقّي. والأصفر المسمى بقاوون، وذلك على نوع عظيم من عظم الضخامة، حتى أكّد لنا بأنه صدف أن رأسين منه كانا حمل دابة.

والساعة 6، بزغ القمر، وكان سفرنا جميلاً لطيفاً جداً، وبعد ساعتين مررنا على قرية شاروخية، والساعة 8،، مررنا بجانب قرية حاجي عيسى الواقعة عن شمال النهر، وكان بها ليلة فرحٍ حيثما كنا نسمع أصوات الطبول والمزامير ونرى الأهالي على الشاطئ في ضوء القمر. والساعة 9 أرسينا في محلٍّ مهجور.

---

(1) - أي مرتكز.

الثلاثاء في 7 تشرين الأول سنة 1873م

أقلعنا الساعة 5 في صبيحة باردة، وكنّا شعرنا في الليل ببرد شديد دام إلى نصف النهار، مع أن أغطيتنا كانت جيدة والخيمة موشحة جميعها باللباد، ومع أن الطوف الذي معنا كان يقترب منّا تارةً ويبتعد أخرى، وجد مسيرنا مسيراً بحوله تعالى، ومن وقتٍ إلى وقت كنا نرى على ضفتي النهر صحارى البطيخ الأحمر والأصفر المسمى عندهم باسمه التركي قاوون، وكثيراً ما كنا نرى قطعان الغنم والماعز بعضها على الشاطئ وبعضها ينحدر عن الجبال ليرد الماء، وكذلك كثيراً من قطعان البقر والجاموس.

وبعد الظهر بنصف ساعة تركنا الطوف أمام قرية تُدعى «أرزي أوغلي» وسرنا وكان طوفنا بإزائنا دائماً، وبعد مسير ≥ الساعة التزمنا بأن نعدل عن المشي لشدة حرارة الشمس، والساعة 3 بعد الظهر كانت قرية «دوه لي» عن شمالنا، والساعة 4 صارت قرية «هولان» عن شمالنا أيضاً على شاطئ النهر، وفهمنا من الملاحين والمحافظين الذين معنا بأن هذه القرية لا تبعد عن ديار بكر على الفارس أكثر من خمس ساعات، حتى ولا على الطوف أيضاً إذا كان الماء كثيراً. والساعة 6 أرسينا في محلٍّ مهجورٍ.

الأربعاء في 8 تشرين الأول [سنة 1873م]

أقلعنا الساعة 4 بعد نصف الليل والساعة -8 مررنا أمام قرية «كوسه لي»، وهي عن يمين النهر، وقبل الظهر بنصف ساعة صارت قرية «بسمل» عن شمالنا، ورأينا الجاموس هناك بكثرة، وبعد قليل كانت قرية «ثازه كولي» بقرب النهر عن يميننا، والساعة 3 نظرنا قرية «كوركجي»، والساعة 4 مررنا على قرية «بوجه لي»، والساعة 6 أرسينا بالقرب من قرية «زريف».

الخميس في 9 تشرين الأول [سنة 1873م]

أقلعنا الساعة -3 بعد نصف الليل في ضوء القمر، والساعة ≥7 مررنا بجانب قرية «جريف»، والساعة >8 بجانب قرية «سلط» والساعة ≥9 بجانب قرية «تعشام» والساعة ،،10 بجانب قرية «كوبري»، وفي هذه القرية والتي قبلها رأينا النساء يغتسلن في النهر وهنَّ عارياتٌ بالكلية.

والساعة 11 شاهدنا قرية «انجولي»، وبعد الظهر بساعة قرية «زيوي»، وفي أسفلها نهرٌ يصب في دجلة يدعى «باطمان صولي»، وذلك على اسم قرية تسمى باطمان تبعد قليلاً عن النهر، والساعة 2 كانت قرية «بيديان» عن يسارنا، والساعة 3 قرية «مردان» عن يميننا، والساعة 4 قرية «فروراوا»،

والساعة 6 أرسينا للمنامة في أسفل وادٍ هناك، وكان أكثر مسير يومنا بين جبالٍ ووهاد، وفهمنا أن طريقنا كلهُ يكون كذلك إلى جزيرة ابن عمرو[1].

وعندما أرسينا نزل الملاحون الأربعة كعادتهم إلى البر بعد ربطهم الطوفين حيثما كانوا، يجمعون حطباً ويضرمون ناراً وينامون حواليها.

وفي هذه الليلة أعطوهم العشاء بعد نزولهم إلى البر، وبعد أن أكلوا خرجنا نحن إليهم وجلسنا معهم بجانب النار، وعندما بزغ القمر هموا للمسير فتعجبنا منهم حيث لم يصر لهم وقتٌ للراحة. وعندما سألناهم عن سبب العجلة؟ أجابنا أحدهم، الذي كان أوفر غيرة منهم واسمهُ حسين قائلاً: إنكم بعد أن أطعمتمونا البلاور واللخن[2] «أي الأرز المفلفل واللحم»، اشتدت قوانا وإذا صار لنا منهُ حظٌ غداً نتقوى أكثر ونزداد نشاطاً، فأجبناهُ ليس هذا هو السبب الحقيقي لأنكم كل يومٍ تأكلون كما أكلتم الآن. فسكت لكن نحن عرفنا السبب، وهو

(1) - جزيرة ابن عمر أو جزيرة بوطان نسبة لنهر بوطان الذي يمر بها تقع في أقصى جنوب شرق تركيا، وكانت من أهم الحواضر الإسلامية. وهي بالقرب من جبل الجودي، وأهلها غالبية كردية.

(2) - وردت خطأ بلامر والصحيح بلاور وتعني الأرز المفلفل باللغة التركية، أما اللخن فهي على الأرجح اليخن وقد وقع خطأ طفيف في كتابتها، أي اللحم المطبوخ بالخضار، وهي كلمة فارسية معربة، أما اللحم باللغة التركية فهو آت.

أننا كنا وعدناهم بأن كل يومٍ ينقص عن الاثنين عشر يوماً اللازمة لوصولنا إلى الموصل، نعطيهم عليه مائة قرش جائزة.

ثم سرنا قبل نصف الليل بساعتين ونصف، ونحن اضطجعنا للنوم بعد الاتكال على الله.

الجمعة في 10 تشرين الأول [سنة 1873م]

الساعة 6، انتبهنا من رقادنا على صياح الديوك التي كانت معنا، وكان الطوّف لم يزل سائراً، ففتحنا باب الخيمة، وإذا قرية «شكاوّتا» عن يسارنا، وأكثر مساكنها مغائر في الجبل منقورة في الصخور، بحيث لا يتكلف السكان إلا لضبط الأبواب فقط.

حصن كيفا

وبعد بضع دقائق مررنا على بعض مساكن قليلة العدد منقورة في الصخر أيضاً، وهي تابعة للقرية المذكورة، والساعة 8 صارت قرية «زاغورة» عن يسارنا، والساعة 9 قرية «زهري» أيضاً، والساعة 10، نظرنا قرية كبيرة ممتدة من قمة الجبل إلى الشاطئ تدعى «حصن كيف»[1]، فأوقفنا

---

[1] - حصن كيفا، وكيفا باللغة السريانية تعني الصخرة، أيضاً كيفا اسم بطرس الرسول بالسريانية، وقد أصبحت في الفترتين الأيوبية والملوكية مملكة أيوبية كانت إلى جانب حماة آخر الممالك الأيوبية الصغيرة في المنطقة.

الطوفين وتحولنا إليها، وبعد أن جلنا بأزقتها وأسواقها غير المستوية، نظرنا أكثر بيوتها وحوانيتها منقورة في الصخور، وبأعلاها قلعة متهدّمة لم يبقَ منها إلا الأبواب، فدخلنا الباب الأول ثم الثاني، وكلاهما من حديد، ونظرنا على الثاني كتابة عربية بها يذكر أنهُ أمر بهذا البناء سليمان بن غازي ولكن من دون تاريخ «ولعل سليمان المذكور من دولة بني ارتق ملوك ماردين وديار بكر أو من السلجوقيين».

ثم انتهينا إلى الباب الثالث فوجدنا على جوانبه كتابات كوفية مربعة محتوية على الشهادتين «لا إله إلا الله. محمد رسول الله»، وبعد أن نزلنا من القلعة دخلنا جامعاً قديماً متهدّماً لم يبقَ منهُ سوى بعض قناطر، وقد جعلوهُ مقبرةً وبه منارة جميلة جداً محفوظة من الخراب، وعليها أشغال وكتابات عربية دقيقة للغاية، ويُوْصَل إلى أعلاها بسلمين كل منهما عدد 38 درجة، وعلى شاطئ النهر من كل جهة دعامة مستندة إلى برجٍ مستدير، وعلى القاعدة السفلى من كل دعامةٍ رأينا ونحن في الطوف صوراً قديمة منحوتة ولا بد من أن هذه الدعائم كان عليها في الأزمنة السالفة جسر عظيم.

وأهل القرية يتكلمون العربية وهم عرب أيضاً. ثم نظرنا عن يسار النهر بإزاء القرية قبّةً قديمة بها أشغال جميلة جداً ونقش مختلف الألوان، وإنما الوقت لم يسمح لنا لأن ننتقل

بالطوف إلى تلك الجهة لنشاهدها كما يجب، لأن الملاحين كانوا يحبون العجلة ليقطعوا محلاً صعباً أمامنا قبل دخول الليل.

فسرنا الساعة 1 بعد الظهر والساعة 4 نظرنا قرية «كفر علبا» والساعة 6 أرسينا عن يمين النهر تحت سفح جبل به أشجار قليلة، وقال لنا الملاحون إنهُ يوجد وراء هذا الجبل قرية «ديرهار» وسبب التعجيل بوقوفنا هناك كان لتصليح بعض القرب التي نفد منها الهواء في الطوف الآخر.

السبت في 11 تشرين الأول [سنة 1873م]

أقلعنا عند نصف الليل، والساعة 7 انتبهنا بقرب قرية «بيلكًا» التي كانت عن يسارنا وأكثر بيوتها مغائر منقورة في الصخور، ونظراً لكثرة مسيرنا في الليل مررنا على جملة قرى لم نرَها، فلا نتمكن من إدراج أسمائها وإنما ليست بذات أهمية لمعرفة مراحل الطريق.

والساعة 9 نظرنا قرية «هوت»، والساعة 10 قرية «تلا»[1]، بأعلى رابية، وفي أسفلها نهر يدعى «أبو طان» يصب في دجلة، والساعة 11 قرية «موبل» التي لبثنا بإزائها مقدار نصف ساعة لانتظار الطوف الآخر الذي معنا لأنهُ كان متأخراً، ثم

(1) - تلا باللغة السريانية تعني التل بالعربية، وهذه القرية مشهورة جداً في التاريخ السرياني وفيها دير كثيراً ما خرج منه بطاركة ومطارنة سريان.

سـرنا، والسـاعة 3 بعـد الظهـر صـارت عـن يميننـا قريـة «جيلاكا»، ونظرنا هناك جملة نساء على الشاطئ للاغتسال وهـنّ عاريات بالكلية، ويظهر[1] أن هـؤلاء الأقـوام اتصلوا إلى هذه الدرجة من التوحش حتى تعرّوا مـن أثـواب التمـدن، وكـان يخال لنا أننا في بلاد البربـر الـذين يصـرفون حياتهم بحالـة العري[2].

أكراد يغنون

والساعة 3 لمحنا قرية «هـازاخ» في قمـة جبـل، وهـي ذات بساتين وأشجار، والسـاعة <3 رأينـا نهـراً صـاباً في دجلة ولم نعرف اسمهُ، والسـاعة -5 ونحن في وادٍ جميل رأينـا قريـةً عـن يميننا في قمة جبل، فسألنا عن اسمها بعض رعيان غنمٍ كانوا في البرّ، وعلى ما فهمنا منهم أن اسمها «نيـال»، والسـاعة 6 قرية «خسته» في قمة جبلٍ أيضاً، وبعدها ببضع دقائق أرسينا في محل مهجور وكان بالقرب منا ثلاثة أطواف ومعها جملة أكراد وهـم قاصـدون، الجزيـرة [أي جزيـرة ابن عمـر] فبعد أن تناولنـا الطعـام حضـروا إلى أمـام طوفنـا وأخـذوا ينشـدون

---

(1) - في الأصل: يبان.

(2)- ليس بمستغرب وصف السيوفي لهؤلاء الفلاحين بهذه الأوصاف، فهو بحكم ولادته في مدينة دمشق لا يعرف بأن الغالبية الساحقة من الفلاحين والبدو في معظم بلاد الشام والعراق كانوا يستحمون في الأنهار الجارية على هذه الشاكلة.

ويرقصون ويضربون بالطنبورة، لكن كان طربهم طبيعياً خالياً من التكلف وبعد أن صرفوا معنا نحو ساعتين تركونا ونحن رقدنا.

الأحد في 12 تشرين الأول [سنة 1873م]

الساعة 1 بعد نصف الليل انتبهنا من صوت المطر الساقط على مشمع الخيمة، فنبهنا بعض من معنا ليغطوا الصناديق التي كانت في جوانب الخيام، ثم سرنا الساعة >5 بعد نصف الليل، وكانت صبيحة جميلة جداً، وعلى جانبي النهر على بعد قليل منهُ كانت تسيل الينابيع على تلك الحصى الدقيقة البلورية، وتصب في النهر بصوت رائق، لكن هذا المنظر المبهج لم يَدُم لنا أكثر من نصف ساعة.

والساعة >9 نظرنا نهراً يتدفق من الجبل ويصب بدجلة واسمه «هريست حولي»، ونهراً آخر يدعى «كُالي»، والساعة 4 بينما كنا راقدين التزم الملاحون بأن يرسوا لمضادة الريح، إلا أنهم أرسوا في محل كثير الصخور لا يمكن التنزه فيه، وحيث كنا مللنا من الجلوس مدة سبعة أيام ضمن خيمة لا تزيد عن المترين ونصف طولاً ومترٍ ونصف عرضاً، طلبنا منهم أن يرحلوا بنا من هناك ويرسوا في محلٍّ آخر شاهدنا فيه خضرة، فرحلوا بنا إليه، فطلعنا إلى البر فنظرنا مروجاً خضراء مزروعةٍ قطناً وبطيخاً لم ينضج، ورأينا شاباً كردياً

فسلمنا عليه فردّ علينا السلام، ثم سألناهُ إذا كانت بلدهُ بعيدة فأجاب أنها وراء الجبل، وصار يظهر الأسف لعدم وجود بطيخ ناضج ليقدمهُ لنا، فشكرناهُ على ذلك ثم سألناهُ بواسطة المحافظين «لأنهُ لم يكن يتكلم إلا اللغة الكردية» كم ساعة من هنا إلى الجزيرة، فأجابنا هذا المسكين بواسطة الترجمان المذكور أنهُ لا يعرف ما هي الساعة واستتلى مستفهماً كم رطلاً تكون الساعة، فودعناهُ وانصرفنا، وبعد قليل تبعنا ومعهُ بطيختان وترجانا قبولهما، فقبلناهما وأثنينا عليه.

والساعة 6 رحلنا من هناك بعد التأخر الذي حصل لنا بسبب معاكسة الريح، والساعة 7 أرسينا لأن الملاحين أظهروا رغبتهم بذلك لوجود بوغاز[1]، حجر في النهر يخشون المرور في الظلام.

[1] – بوغاز مضيق باللغة التركية.

جزيرة ابن عمر

الاثنين في 13 تشرين الأول سنة 1873م

ارتحلنا بعد نصف الليل بساعة والساعة >3 حللنا في الجزيرة المعروفة بجزيرة بن عمرو[1]، وربطنا حذاء جسر خشب ممدود في النهر، ولبثنا إلى الصباح ففتحوا لنا الجسر وعبرنا، وأخذ الملاحون بتصليح طوفينا وتمكينهما، ونحن قصدنا البلد فرأينا بالقرب من طوفينا أساس جسر من حجر قديم البنيان ولم يبقَ منهُ إلا دعامة واحدة، وجانب حقير من جهة البلد التي جوانبها خراب ولا تستحق بأن تسمى بلدةً بل قرية، «هذه هي جزيرة بن عمرو الشهيرة في التاريخ».

ولما علمنا بوجود بعض قطع قديمة من السكة الكوفية طلبنا المشترى، فأدخلنا الدليل بيت امرأةٍ وجدنا عندها بعض قطع فأخذناها منها، ولما ودعناها أجابت «على عيني جئت»، وهي عندهم بمثابة قولك مع السلامة.

ثم رجعنا إلى الطوفين، وبعد إتمام تصليحهما أقلعنا بعد الظهر بنصف ساعة، والساعة ،، نظرنا جسراً خرباً لم يبقَ منهُ

---

[1] - تسمى جزيرة بوطان ايضاً.

إلا قنطرة واحدة مستندة على دعامة مستديرة، وعلى دائرها صور قديمة ويظهر[1] أن هذا الجسر كان منيعاً جداً.

والساعة 3 رأينا قرية «محمدية»، وبعدها بنصف ساعة نظرنا قطعان الغنم والمعزى على الشاطئ فوقفنا لنسوم رأس غنم، وإذا بعشرة أشخاص منهم أولاد ومنهم شبّان أقبلوا علينا وهم عراة بالكلية، وكان الأمر لديهم طبيعياً، فأرسلنا الضابطة[2] لطردهم، وكان من جملة أولئك المتوحشين شابٌ طويل القامة لم يهمهُ صراخ الضابطة حتى ولا رجمهم إياهُ بالحجارة، وأخيراً انصرف يمشي الهوينا كأنهُ لم يفهم سبب معاملة الضابطة لهُ بهذه الصورة، فسبحان من أهمل هؤلاء الناس بحيث اتصلوا إلى هذه الدرجة من التوحش وسوء الأدب.

الساعة 5 نظرنا قرية «رواني» وبجانبها نهر يصب في دجلة يُدعى «مردش»، والساعة 6 قرية «جمقاره»، والساعة 7 أرسينا أمام قرية «روباهي».

وعندما كنا في الجزيرة فهمنا أنهُ يوجد في طريقنا إلى الموصل لصوص من البدو وغيرهم، يقطعون في الماء ويأتون إلى الأطواف بقصد السرقة، فنبهنا رئيس الضابطة الذين كانوا معنا لكي يعلم رفاقهُ بأن يناموا بعد تناولهم الطعام ونحن نسهر، ثم ننبهم ليتولوا الحراسة إلى حين طلوع القمر، وعند ذلك يوقظون الملاحين للسير وهكذا كان.

---

(1) – في الأصل: يبان.

(2) – أي عناصر الشركة العثمانية.

زاخو وسه مانكا

الثلاثاء في 14 تشرين الأول [سنة 1873م]

ودعنا «روباهي» الساعة الثالثة بعد نصف الليل، والساعة 3≤ رأينا قرية «قره خراب»، والساعة 4 قرية «ريحاني»، وهناك يوجد في الجبل معدن عظيم من الفحم الحجري يباع رطلهُ «وهو ست أقات» بخمسين بارةً، وشاهدنا في ضوء القمر كميات وافرة منهُ، وقيل لنا إنهُ ينقل منهُ إلى بغداد وإلى إسلامبول.

والساعة 4≤ رأينا قرية «زهيري»، وبعدها قرية «قراوراس»، وبقربها قرية «باسورين»، ثم قرية «صوفي سالم». والساعة 6،، قرية «مغارة»، وبعدها بخمس دقائق نظرنا نهر الخابور صاباً في دجلة من جهة الشمال، وقيل أنهُ يمر قبل ذلك أمام قصبة «زاخو»[1]، والساعة 7 شاهدنا قرية «سَهْ مانكا» ومعناه بالكردي ثلاث قرى، والساعة 8 قرية «بيثابور» على رابيةٍ، وفهمنا أن سكانها كلهم نصارى وإنها قرية كبيرة

---

(1) - زاخو هي مدينة تقع في كردستان العراق قرب حدود كردستان العراق الشمالية مع تركيا ولاتبعد عن ناحية إبراهيم الخليل الحدودية مع تركيا سوى عشرة كيلومترات.

تحتوي على أكثر من مائتي بيت، وعلى جانبها كنيسة فوق النهر، فأرسى الطوف وتوجه أحد الضابطة لمشترى اللوازم، ونحن قصدنا للتفرج، فرأيناها ذات مياهٍ وبساتين.

ثم ارتحلنا الساعة 9 ومررنا على قرية «شيليسكي» وقرية «باجد»، والساعة ≥2 رأينا قرية «طاغلوجة» في الجبل على مسافةٍ قريبةٍ من النهر، والساعة ≥6 أرسينا في محلٍّ مهجور، وقيل لنا إنهُ يوجد بعض البدو من عشيرة شمر يقصدون السرقة في الليل، فأخذنا الاحتياطات اللازمة نظير الليلة الماضية واتكلنا على الله.

الأربعاء في 15 تشرين الأول [سنة 1873م]

رحلنا الساعة 1 بعد نصف الليل، والساعة 9 نظرنا قرية خربة لا ساكن بها تدعى «باشاي»، ووقت الظهر رأينا قرية «قانق» على رابيةٍ، وفهمنا أن أهاليها يزيدية، فربطنا أمامها مقدار ساعةٍ ثم ارتحلنا، والساعة 3 نظرنا قرية «رَيان»، وفهمنا أنهُ يوجد بأعلى الجبل عن شمالنا قرية تدعى «شَمْرَاشْت» والساعة >3 صارت قرية «ملخية» عن يسارنا وسكانها عرب، والساعة ≥5 أرسينا بالقرب من قرية تسمى «فيْنا» وأصل سكانها من عرب العُبَيد[1]، فنزلنا إلى البر

[1] – واحدة من كبريات قبائل العراق، ولها امتدادت في سوريا، وثمة آراء يقول إنها من القبائل الزبيدية، حسبما يذهب العزاوي في عشائر العراق، غير أن البعض يرى أنها قبيلة مستقلة.

وجلسنا مع بعض الأهالي الذين كانوا يحرسون مزروعاتهم على الشاطئ، واشترينا منهم ما تيسر من البطيخ والخيار، ثم أرانا أحد الضابطة رفاقنا[1] مزاراً برأس جبل أمامنا عن بعد في البر الآخر يدعى مزار الشيخ بلال الحبشي[2]، وقال لنا بعض الفلاحين: إن الشيخ المشار إليه لهُ كرامات وافرة، منها أنهُ في كل سنة في ابتداء شهر رمضان يسمع من مقامه مدفع تبشيراً بالصيام، وقال بعضهم إن المدفع يُضرَب كل يوم من الصيام ويسمع صوتهُ جميع أهالي القرى المجاورة.

ثم أجاب أحد الحاضرين، «وكان يظهر أنه أقل إيماناً منهم»، أن الصوت الذي يسمعونهُ هو صدى مدافع الموصل الذي يتصل إليهم بواسطة الجبال.

ثم أخبرونا عن معجزة أخرى عنهُ وهي: أن أحد أهالي القرى المجاورة ذهب يوماً ليقطع شجرة بقرب المقام، فحالما وضع الفأس على أصل الشجرة خرج منها دمٌ وشبَّ إلى وجهه، فلم يتمالك أن يضبط نفسهُ بل أخذتهُ الرعدة ولم يصل إلى بيته سالماً.

---

(1) - في الأصل: أرفاقنا.

(2) - هو مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم كان عبداً واعتق في الإسلام، ثم صار مؤذناً مقرباً جداً من الرسول، تجمع الروايات على أنه توفي في دمشق، وقبره ما يزال فيها في مقبرة باب الصغير، وله مزارات ومشاهد في أكثر من مكان.

الخميس في 16 تشرين الأول [سنة 1873م]

تركنا تل فينا الساعة 4 بعد نصف الليل، وصباحاً فهمنا بأننا مررنا على «دير حال. وقرة»، والساعة 8- نظرنا قرية «باب نيت»، وقيل لنا إن أهاليها من القزل باش[1]، والساعة 8،، قرية «كرهول»، وهي قرية كبيرة، والساعة 10، قرية تدعى «ضوء القمر»، والساعة 11 رأينا بعض نساء عربيات على الشاطئ الشمالي وفهمنا أنه يوجد وراء التل قرية تدعى «ضرار»، ثم نظرنا قرية «سهلة»، والساعة ≥ قرية «حسونية»، والساعة 3 قرية «وانق» وأهلها عرب، وأمامها على البر الآخر توجد قلعة يقولون إن هناك كانت موصل القديمة، ويسمون ذاك المحل «أسكي[2] موصل»، والساعة ≥4 قرية «دير»، والساعة 7 أرسينا أمام قرية تدعى مصرك.

الجمعة في 17 تشرين الأول [سنة 1873م]

ارتحلنا من مصرك الساعة ≥3 بعد نصف الليل، والساعة 6- رأينا قرية «خوجة خليل»، والساعة 6،، رأينا على الجهة الشمالية عماراً حديثاً مخروق الجوانب كالشبابيك على حافة النهر، وهو ناعورة لرفع الماء وسقي الأراضي،

---

(1) - مصطلح تركي يقصد به العلويون، ومصدر هذا المصطلح حروب إسماعيل الصفوي مع سليم خان، حيث كان جنود الصفوي يرتدون قبعات حمراء.

(2) - أسكي قديم باللغة التركية.

والســاعة >7 نظرنـا قريــة «كرنــاجوك»، والســاعة 8 قريــة «بـارول»، وبعـدها بقليـل قريـة «الشـيخ محمـد »، والسـاعة 8،، قرية «حميدات»، وهناك نظرنا قطعان الغنم والماعز ترد الماء، وكانـت كثيرة جـداً حتـى أنهـا كانـت تغطـي كـل ذاك الشـاطئ ورعاتها عرب، والساعة 10 شاهدنا قرية «قره قويون»[1]. وهي واسـعة وأجمـل عمـاراً ممـا قبلـها، والسـاعة 11قريـة «تريشـه»، والســاعة >11 قريــة الرشــيدية، وبعــد الظهــر بريــع ســاعة «قاضــي كــوي»، والســاعة >1 بعــد الظهــر وصــلنا بالســلامة حمداً للعزة الإلهية إلى الموصل.

[1] - قرة قيون تعني بالتركية الأغنام السوداء، وهي قبائل التركمان السوداية تميـزاً لها عن قبائل التركمان البياضية آق قويون.

الموصل

وعندما أرسينا وجدنا الخواجا عبود الجزراوي ترجمان قنسلاتو فرنسا[1] في الموصل وبصحبته يسقجي[2] من طرف موسيو برتيه قنصلها يكلفنا للنزول عنده، فنزلنا في محل موسيو برتيه المومأ إليه، ولبثنا هناك بضعة أيام لانتظار طوف كبير يحملنا إلى بغداد، ولدور حُمَّى حصل لنا بعد وصولنا بيومين، بحيث ألزمنا الفراش جملة أيام، ومنعنا عن الجولان إلا قليلاً لرد الزيارات لذوات البلدة والتفرج على خورساباد[3] ذات الآثار العظيمة المختصة بمملكة نينوى القديمة، التي كان قد اكتشفها موسيو بوطا[4] أحد قناصل فرنسا في الموصل. لكن ذهبنا إلى نبع ماء كبريتي يدعى عين الكبريت، وموقعه بجانب المدينة وهم يستحمون به.

---

(1) – أي القنصلية الفرنسية.

(2) – بمعنى حارس أو رجل أمن باللغة التركية.

(3) – مدينة أثرية شهيرة تقع شمال شرق الموصل عثر فيها على أهم الآثار الآشورية.

(4) – بول إميل بوتا *Paul-Emile Botta* وقد بدأ في عام 1843م تنقيبات في قيونجيك ثم في خورساباد بحثاً عن عاصمة صرغون الثاني، وتعتبر أعماله بداية علم الآثار الميداني.

الجمعة في 24 تشرين الأول [سنة 1873م]

ودعنا جناب الخواجة برتير ووالدته، وقدمنا لهما الشكر عن حسن استقبالهما لنا ونزلنا في الطوف المبني من ثلاثمائة قربة لأنه كان واسعاً وملاحوه أربعة، وأقلعنا من أمام الجسر الساعة >2 بعد الظهر، وبعد برهة نظرنا بلدة تدعى النبي يونس[1]، وقيل لنا إن الحفر لإيجاد الأشياء القديمة ابتدأ منها، والأهالي يعتبرونها تابعة محل نينوى القديمة.

والساعة 4 رأينا قرية «يارمجه» والساعة ،،4 قرية «سرامون»، والساعة >5 قرية «شمسيات» والساعة >8 قرية «حاوي أصلان» على رأس رابية، وهي خراب. والساعة 9 قرية «قبر العبد» والساعة >9 أرسينا أمام «حمام علي» على بعد ربع ساعة منه، ثم نزلنا من الطوف إلى البر ومعنا جملة أشخاص من الضابطة لنرى الحمام، وإذا هو بأسفل رابية تدعى «تل السبت»، والأراضي التي حواليه جميعها فارغة وبدون أبواب، وهي للجموع التي تقصده في أيام الصيف للاستحمام.

أما هو فبركة واحدة مستديرة وملؤه [ماء] حار يجري للخارج ويصب في دجلة، وكنا نرى على وجه الماء أقذاراً تشبه

---

[1] – في الجهة الشمالية الشرقية من الموصل يوجد تل عليه مسجد اسمه تل النبي يونس فيه ضريح يقال إنه ضريح النبي يونس.

الرماد مختلطة بقطع سود، هي من القير يوازي بعضها جرم التفاحة الكبيرة، وكلها تخرج من الينابيع مع الماء، فقصدنا أن نستحم إنما كان معنا طبيب نمساوي متوجه مع اثنين آخرين لخدمة الحكومة في بغداد، وهو منعنا منعاً قطعياً عن ذلك نظراً لآثار الحمى التي كانت باقية معنا عندما كنا في الموصل، فامتثلنا إلى رأيه، وبعد أن جلنا في تلك الجهات مقدار نصف ساعة رجعنا إلى طوفنا وبتنا هناك.

السبت في 25 تشرين الأول[سنة 1873م]

أقلعنا الساعة 5 بعد نصف الليل والساعة 6< رأينا قرية «سلامين» بأعلى رابية وقبلها نظرنا على الشاطئ بيوتاً من الشعر لبدو عشيرة تدعى الجبور، وفهمنا أنها على الشاطئين من حمام علي إلى بغداد وأن من الموصل إلى حمام علي توجد معها عشيرة أخرى تدعى أبو حمد[1]، وإن جميع اللصوص على طريقنا هم من تينك العشيرتين ولهم حذاقة كلية بالسرقة.

والساعة 7< نزلنا جميعنا إلى البر ولم يبقَ في الطوف إلا الملاحين فقط لأننا وصلنا إلى شلالة يدعونها العواية وهي جزئية جداً لا تستحق أن تسمى بهذا الاسم، وإنما إذا كان الطوف ثقيلاً يصعب نزوله منها لأن النهر مقطوع من

---

(1) - قبيلة البوحمد واحدة من اكبر القبائل الزبيدية في العراق وهي فرع من قبائل زبيد البوسلطان.

الشاطئ الواحد إلى الآخر بصف أحجار مرصوفة بعضها فوق بعض، ولا يوجد إلا مضيق واحد يمكن العبور منه، فلأجل التخفيف نزلنا ووقفنا بإزاء الشلالة لنرى عبوره، فمرّ ببعض الانزعاج، إلا أن أربعة قرب نفد منها الهواء فأصلحت حالاً.

وقبل مروره منها فهمنا من الملاحين أن كل كلك مرّ من هذه الشلالة ينذر ذبيحة إلى السلطان عبد الله، الذي هو ولي معتبر عندهم، وسنصل اليوم إلى مقامه.

أما الحجارة المذكورة القاطعة النهر فنظن أنها بقايا جسر قديم لإشارات ظهرت لنا، والملاحون أخبرونا أنها آثار سدّ بناه النمرود[1].

وبعد أن تمّ تصليح الطوف ارتحلنا، والساعة ≥8 رأينا قرية «السيد أحمد»، وقالوا إنه يوجد هناك آثار قديمة، والساعة 11 قرية «الصناريج»، وقيل أنها كانت خراباً وعمرت بواسطة عرب الخطاب[2]، وهو اسم شيخهم، إلا أن العشيرة مختصة بالجبور[3]، وعند الظهر رأينا قرية «الجرف»، وقيل

(1) - شخصية أسطورية ينسب لها الكثير من الأبنية الكبيرة، وفي التراث الإسلامي يرى الكثير من المفسرين أنه الملك نمرود بن كنعان وهو الذي حاجج النبي إبراهيم عليه الصلاة والسلام في ربه.

(2) - يذكر أوبنهايم هذه القبيلة البو خطاب ضمن قبائل جبور الخابور.

(3) - قبيلة عربية كبيرة تنتسب إلى قبيلة زبيد القحطانية، وتتوزع ما بين العراق وسوريا.

إن مـن الموصـل إليهـا علـى الفـارس ثمـاني سـاعات، وبعـد عشرين دقيقة مررنا على محل يدعى «الجايـب»، ولم يكن به عمار لكن العرب تقطنه على الدوام وهو مشهور بهذا الاسم.

والسـاعة 11 قطعنـا شـلالة أخـرى فنـزل بعضـنا وبقـي البعض الآخر في الطوف مـع المجـذفين[1]، وهـذه الشـلالة أشـد انحداراً مـن الـتي قبلـها، وبعـد أن قطعناهـا التزمنـا أن نرسـي هناك لتصليح الطوف.

ثـم أرسـلنا ملاحـين لإصـلاح طـوف الأطبـاء النمسـاويين الـذين رافقونـا مـن حمـام علـي، والسـاعة 2 أقلعنـا والسـاعة 3 شـاهدنا نهراً كبيراً صـاباً في دجلة يـدعى «الـذاب»[2]، والسـاعة 6 نظرنا قرية «تل الشوك» والساعة 7 مزار السلطان عبد الله المذكور آنفاً، والسـاعة >7 أرسينا، وكان بجانبنـا أطـواف كثيرة موسوقة بضائع، وقيل إنها سافرت من الموصل قبلنا بنحـو 45 سـاعة، وشـاهدنا هنـاك جملـة عريـان فـدخل إلينـا أحـد المحـافظين الـذين كـانوا برفقتنـا وقـال: إن رجـلاً يسـمى منـلا طـه[3]، يسـأل إذا كنـا نـرخص لـه بـالركوب في طوفنـا بعـض

---

(1) - في الأصل: مع القذافين.

(2) - الزاب الكبير أحد روافد دجلة الشهيرة، وهناك نهر آخر اسمه الزاب الصغير أيضاً يصب في نهر دجلة.

(3) - في الأصل: منلا طاها.

المسافة، لأنه أخو كاتب فرحان باشا شيخ عرب شمر[1]، ومعه تلغراف إلى الباشا، فأجبنا طلبه وقبلناه بالترحاب.

(1) - الشيخ فرحان بن صفوق البكر شيخ مشايخ قبيلة شمر يذكر أوبنهايم في كتابه البدو ج1، العراق الشمالي وسوريا، في الصفحة 241 أنه حصل على لقب الباشاوية عام 1870م وكذلك على راتب شهري من الحكومة التركية، بعد أن وشى بشقيقه عبد الكريم الذي كان مطارداً من السلطات العثمانية وفاراً إلى المنتفق، ولم يحظ الشيخ فرحان باحترام حقيقي في قبيلته، وظهر له منافس هو أحد أشقائه الصغار ويدعى فارس الذي ترعرع في شمر نجد وعاد عام 1875م وعين قائمقاماً أول الأمر، ثم حاز على لقب الباشاوية وأصبح منافساً لأخيه فرحان.

ينابيع النفط والقار

الأحد في 26 تشرين الأول [سنة 1873م]

ارتحلنا الساعة >4 بعد نصف الليل، والساعة >8 وصلنا إلى محل فيه معدن قير[1] يسمونه «القيارة»[2]، فنزلنا إليه وإذا هو مسافة طويلة مغطاة بالقير اليابس، وشاهدنا جملة ينابيع جديدة من القير والزفت ويدعونه النفط، وهو ألين من القير، وفيه أيضاً جملة ينابيع من الماء الكبريتي، وقيل لنا إنه مفروض على كل من مرّ بهذه المحلات أن يقد النار لحرق هذه المعادن مخافة من انحدارها إلى النهر، ومع تراكمها تسد مجراه أو تحوله مع تمادي الأيام، وقالوا إن كل من تهامل عن أن يشعل ناراً «عليه لعنة الله[3]».

---

(1) – القار، وهو الزفت.

(2) – القيارة هي إحدى نواحي مدينة الموصل التابعة إلى محافظة نينوى العراقية وتقع إلى جنوب مدينة الموصل بحوالي 60 كيلو متر وتتالف من عدة قرى قريبة عليها اشهرها قرية أجحلة وقرية الحود وقرية لزاكة وقرية الزاوية وقريةالحاج علي وقرية أركبة-جدعة وقرية المرير وقرية الصميوية وقرية السرت.والى الجنوب من مدينة القيارة بحوالي 40 كيلو متر تقع قلعة آشور الشهيرة الموجودة آثارها إلى الآن في قضاء الشرقاط التابع إلى محافظة صلاح الدين وكذلك هناك قصر كبير يعود إلى العهد العثماني يسمى القصر الاسود ولا يزال القصر محافظ على معالمه العثمانية.

(3) – في الأصل: عليه لعنة لما، ونظن انه خطأ مطبعي.

ومن هذا المكان ابتداء البر من جهة الشاطئين أن يكون خالياً من العمار، ما عدا بعض محلات يسكنها فلاحو عشيرة شمّر في بيوت من الشعر أو من القش والقصب.

والساعة 5< حللنا في محل يدعى «مطق» وهنا كان ينتظرنا على الشاطئ جملة أشخاص من عرب شمّر منهم شلال بن فرحان باشا[1]، رئيس القبيلة وحاكمها، والشيخ حسن شيخ عشيرة الجبور التي هي فرع من عشيرة شمر[2].

---

(1) - يرد اسم شلال بن فرحان في كتاب البدو لأوبنهايم ج1، العراق الشمالي وسوريا ص 247.

(2) - قبيلة الجبور ليست فرعاً من فروع شمر، ولكنه يقصد أن هذا الفرع من القبيلة يتحالف مع قبيلة شمر. ويبدو أن هذا الشيخ المذكور أي الشيخ حسن أو حسين هو شيخ جبور دجلة وينتمي إلى فرع العجل الذي يتخذ من القيارة موطناً له.

في ضيافة شيخ شمّر

وقد حضر الجميع من طرف الباشا المومأ إليه ليكلفونا للعشاء عنده، ومعهم خيول لركوبنا، والسبب في ذلك منلا طه الذي ركب معنا قبلاً ونزل من الكلك قبل وصولنا بساعتين، وركب في البر ليخبر الباشا بقدومنا، وهكذا دعانا إلى محله الذي يبعد عشر دقائق عن النهر، فإتماماً لطلبه توجهنا، وعندما وصلنا إلى خيمة الباشا رأيناه أمامها فاستقبلنا بكل فرح وإكرام وأدخلنا إليها.

وهي واسعة ومفتوحة الجوانب، وجميع مشايخ القبيلة جالسة على جانب من جوانبها، وفي وسطها نار مشبوبة، فجلسنا على فراش كان معداً لنا، وجلس الباشا حذاءنا وأخذ يظهر لنا الانعطاف[1] والسرور من حضورنا، إليه، ونحن أبدينا له مزيد التشكر.

وبعد برهة وصل الأطباء الذين كانوا برفقتنا وقد تأخروا عنا، وعندما عرفوا بذهابنا لمقابلة الباشا المشار إليه تبعونا فعرّفناه بهم واستقبلهم بكل بشاشة.

---

[1] - يبدو أن المقصود من هذه الكلمة التعطف أو العطف، وليس الدوران.

ثم دخلت قرينتي إلى محل حريم الباشا الكائن في جانب من جوانب الخيمة، تسميه العرب بيت المجد، وبعد رجوعها قدموا لنا القهوة جملة مرار[1].

ثم غسلنا أيدينا ومدّوا خوان الطعام[2]، وكان عليه صدر من الرز مكلل بكمية وافرة من اللحم مع جملة صحون بها ألوان أخر.

أما الباشا فطبقاً لعوائدهم بما يخص الضيافة العربية تمنع عن الجلوس معنا، وعندما كلفناه لذلك أجابنا «أنت المعذب»، وهي كلمة يسمون بها صاحب المحل، فشددنا عليه وأفهمناه بأننا لا نأكل إن لم يجلس معنا، فجلس وأخذ في أن يأكل بيديه على نمط العرب، فاقتدينا نحن به، أما الأطباء فبعد التجربة لم يمكنهم أن يأكلوا مثلنا، وكانوا يتمرمرون من عدم إمكانهم لذلك، بحيث يقدرون أن يقولون فيما بعد إنهم أكلوا مثل العرب، بل رجعوا إلى الملاعق.

وبعد العشاء صرفنا برهة من الزمن وكنا نتذاكر مع الباشا المذكور تارة بالتركية وتارة بالعربية، لأنه توجه إلى الأستانة العلية كما أفهمنا، وهناك تعلم التكلم بالتركية، وقد سررنا جداً من التعرف به لأنه لرجل شهم كريم الأخلاق

---

[1] - أي مرات كثيرة.

[2] - أي سفرة الطعام.

متحل بمحاسن الصفات، وعند انتهاء الوقت ودعناه مقدمين له التشكر عما أبداه لنا من اللطف، وطلبنا منه بأن يرسل معنا إلى الطوف ولده شلال والشيخ حسن اللذين كانا قد حضرا لمقابلتنا، فأمرهما وحضرا ومعهما المنلا طه وابن الشيخ حسن.

وبعد أن شربوا القهوة عندنا في الكلك، ألبسنا الجميع بعض ما كنا اصطحبناه معنا من بلادنا، وودعونا بسلام.

الاثنين في 27 تشرين الأول [سنة 1873م]

ارتحلنا من «مطق» الساعة >3 بعد نصف الليل، والساعة 5 مررنا بتلول تدعى تلول العفر[1]، والساعة >7 رأينا قرية «شرقاط»[2]، وبقربها قلعة بنتها الدولة العثمانية حديثاً، وهذه القرية تخص فرحان باشا، والساعة 5 رأينا نهراً كبيراً يصب في دجلة يدعى «ذاب أبي حمدان» وكان ماؤه أحمر فاستنتج الملاحون أن سببه انحدار أمطار في الجهة العلوية.

ومنه ابتدأنا بأن ننظر [نشاهد] قطعان الخنازير البرية على الشاطئين لخلو المحلات من السكن، أما الملاحون فلم

---

(1) - المقصود تلعفر إلى شمال غرب مدينة الموصل على بُعد 69 كم، وتبعد عن قضاء سنجار 55 كم، والمعروف عنها أنها مدينة قديمة واسمها تلعفر يرد في المصادر الجغرافية المبكرة ويعني تل التراب.

(2) - الشرقاط مدينة عراقية تقع شمال بيجي في محافظة صلاح الدين، وتضم عشيرتي الجبور والجميليين وعدد من العشائر الأخرى اللهيب والعبيد وشمر.

يتجرؤوا بأن يرسوا هناك لاستيحاش المحل، بل ساروا في الليل، والساعة 9 تاهوا عن مجرى الماء العميق، وانحرف الكلك إلى جهة قليلة الماء، فثبت وسمع له دويّ قوي جداً فالتزم الجميع بأن ينزلوا إلى الماء ويدفعوه إلى العمق، وهكذا بقوا مقدار ساعة حتى أرجعوه إلى مسيره، وبعد ذلك سرنا . و الساعة 11 أرسينا في محل يدعى «أبا جحش» وكان به قوم من عرب الجبور.

الثلاثاء في 28 تشرين الأول [سنة 1873م]

ارتحلنا من أبي جحش الساعة >5، وسبب تأخرنا هو خوف الملاحين من السير في الظلام لأن الماء كان قليلاً، والساعة >10 مررنا بجانب ينابيع من القير كانت روائحها فائحة، وكانت الصخور التي عن يسار النهر سوداء، وهناك كنا بين جبلي مكحول وحمرين[1]، وقد نظرنا جملة أطواف مبنية من الخشب دون قرب ومتوجهة إلى بغداد لأجل بيع حطبها، وكنا نسمع أصحابها ينبهون بعضهم بعضاً من اللصوص، لأنهم شاهدوا على الشاطئ شخصين من عرب عنزة يتأملان بالإكلال، وبعد ذلك ذهبا فقال الملاحون إنه يوجد بهذه الجهة أربعون لصاً من عرب عنزة يهجمون على

(1) - جبلان معروفان قرب الموصل.

الأطـواف وينــهبونها، وكــان فكــرهم أن الشخصــين اللــذين نظروهمــا لم يحضــرا إلى الشــاطئ إلا لأجـل كشـف أحــوال الأطـواف وعـددها وأنهمـا رجعـا ليخبرا رفاقهمـا"[1]. إنمـا كـان رأي الأكثـرين منـهم بـأنهم لا يتجـرؤون علـى مهاجمـة طوفنـا لوجـود الرايـة الفرنسـاوية في أعـلاه، فسـرنا حمـداً لله تعـالى، ولم يحـدث شـيء ممـا كـانوا يتوهمونـه، وبقينـا سـائرين النـهار كلـه والليـل أيضـاً إلى أن غـاب القمـر نحـو منتصـف الليـل، وأرسـينا في محـل يـدعى «إرشـادية» وبهـذا النـهار لم نـرَ قـرى أبداً.

(1) – في الأصل: أرفاقهما.

تكريت

الأربعاء في 29 تشرين الأول [سنة 1873م]

ارتحلنا من إرشادية الساعة 4 بعد نصف الليل والساعة >5 شاهدنا جبل كريم، وبه مزار لابن الإمام الكاظم المدعوّ بعبد الكريم أبي خلخال، والساعة >6 رأينا بيوتاً من الشعر لعرب من العُبَيد، والساعة 10 حللنا في تكريت[1]، وهي عن يمين النهر، وهناك شاهدنا أول شجرة من شجر النخيل، وبوصولنا نظرنا السفن المدعوة عندهم «بالقفف»، تأتي من الجانب الآخر إلى تكريت مشحونة بضائع كانت وافدة باكراً مع كروان من كركوك[2]. أما شكلها فكان نظير الطاسة المضمومة الفم.

---

(1) - تقع مدينة تكريت على مسافة 160 كم شمال غرب بغداد على نهر دجلة، وهي مركز محافظة صلاح الدين. وُلد فيها صلاح الدين الأيوبي، وكان فيها قلعة مهمة أثناء الحروب الصليبية، وهي إحدى مدن السريان التاريخية.

(2) - تقع مدينة كركوك الحالية على أطلال المدينة الآشورية القديمة ارابخا التي يقدر عمرها بحوالي 5000 سنة. وتعد الآن مركزا رئيسيا لإنتاج النفط في شمال العراق وهي مدينة متعددة الأعراق يقطنها الأكراد و التركمان و الكلدان السريان الأشوريين والعرب والأرمن .وتبعد كركوك *250* كيلومتر شمال شرق محافظة بغداد عاصمة العراق يحدها جبال زاكروس من الشمال ونهر الزاب الصغير من الغرب وسلسلة جبال حمرين من الجنوب.

ثم نزلنا لنرى البلد لاعتبارنا لها محل تاريخي، وإذا هي قرية بسيطة وأهلها بزي أهل البادية تماماً، ولم نرَ فيها إلا أربعة حوانيت رأس مال أحسنها لا يزيد عن 200 غرش، ثم أعلمونا بأنه يوجد فيها قلعة، فتوجهنا إليها فلم نجد فيها غير أثر قليل، وتأسفنا على تعبنا بدون نتيجة.

ومما حكي لنا عن أهالي تكريت أنهم من الجبن على جانبٍ عظيم، لأنه وقتاً ما طلب منهم أحد الحكام خمسمائة رجل مدججين بالسلاح لدفاع عدو كان قادماً عليه، فبعد أن أعدوا المطلوب أعلموا الأمر بنهاية العمل، وطلبوا منه محافظين[1] ليوصلوهم إليه، فلما سمع بذلك أمرهم بأن يتربصوا في أمكنتهم حيث لا حاجة له بهم.

ثم ارتحلنا من تكريت الساعة 12- والساعة 3 شاهدنا جمعاً من عرب عنزة وارداً على النهر، وقيل إنه كان قاصداً الغزو.

والساعة 5- نظرنا قرية «دور»، والساعة 7 نادى أحد البدو ملاحينا قائلاً لهم، إنه صار غزو من ساعتين على بعض العرب من الشاطئ الأيمن، فلم نحفل بذلك، والساعة >7 أشار لنا المحافظون على وادٍ من الجانب الشمالي يدعى وادي الرصاص وقالوا: إن منه تبتدئ آثار بغداد القديمة.

---

(1) - أي عناصر شرطة.

والساعة 8 رأينا نيراناً أمامنا على الشاطئ الأيمن، وإذا برجل على كلك مشحون حنطة مختف بلحف الشاطئ، ينادي ملاحينا قائلاً لهم أن لا يتقدموا الآن، الغزو أمامهم والنيران التي شاهدناها كانت لهم.

فعند ذلك صففنا الصناديق فوق بعضها على الجانب الأيمن من الكلك، وجعلناها كسور بإزار الخيمة التي كانت قرينتنا بها لنقيها من رصاص العدو، إذا اتصل [أي وصل] الأمر للضرب واستعد المحافظون على الدفاع بأسلحتهم، واصطف الجميع على يمين الكلك بإزار العرب، وعند ذلك أشرنا للملاحين بأن يسيروا فساروا، وإذا بستة أطواف وراءنا مشحونة من الحنطة والبطيخ كانت مختبئة على الشاطئ الأيسر خوفاً من العرب، ثم أخذ المحافظون وجميع من معنا يرددون أصوات حداء العرب، ويطلقون البارود مقدار ساعة، وهكذا مررنا وبقي الغازون مستقرين في أمكنتهم دون أن يأتوا بحركة، وبقينا بهذا الاستعداد إلى أن ارتاحت أفكارنا، وبهذه الأثناء التزمنا بأن نبطئ في المسير لانتظار كلك الأطباء الذين كانوا متأخرين عنّا خوفاً من أن تنهبهم العرب، لأن طوفهم كان صغيراً وبدون محافظين، وبقينا سائرين الليل بتمامه.

سامراء

الخميس في 30 تشرين الأول[سنة 1873م]

عندما انتبهنا صباح هذا النهار، أخبرونا بأننا مررنا نحو الساعة 6 بعد نصف الليل على سامراً، وهي قصبة ابتدأ ببنائها المعتصم[1]، ثامن الخلفاء العباسيين ودعاها سرّ من رأى[2]، وذلك سنة 220 للهجرة.

والساعة >8 أرانا أحد المحافظين ترعة عن يمين النهر، تجري مسافة 6 ساعات لسقي الأراضي واسمها نهر الدجيل،

(1) - الخليفة العباسي الثامن أبو إسحاق محمد بن المأمون الملقب بالمعتصم ارتبط اسمه ببناء مدينة سر من رأى (سامرا) ونقل مركز الخلافة إليها، كما ارتبط اسمه بفتح عمورية الذي جاء بعد أن أقدم ملك الروم على مهاجمة "زبطرة" وقتل وأسر سكانها المسلمين ومن بينهم تلك المرأة الهاشمية التي استنجدت وهي بأيدي الروم: وامعتصماه توفي عام 842م.

(2) - سامرّاء اسم آراميّ، وهو في أصله مقصور كسائر الأسماء الآرامية، وقال الأب أنستاس ماري الكرملي: «لا جَرَم أن الذي أسس سامرّا وبناها هو الخليفة العباسي المعتصم بالله.. أما اسم المدينة فليس من وضع المعتصم نفسه بل هو قديم في التاريخ، فقد ذكره المؤرخ الروماني اميانس مرقلينس الشهير الذي ولد سنة (320) وتوفي سنة (390) بصورة (سومرا) *Sumera*. ونوّه به زوسيمس المؤرخ اليوناني من أبناء المائة الخامسة للمسيح صاحب التاريخ الروماني بصورة (سوما) *Souma* ويظن أهل النقد من أبناء هذا العصر أنه سقط من آخر الاسم حرفان والأصل (سومرا: *Soumara*) وورد في مصنفات السريان (شومرا) بالشين المنقوطة، وعرّفها ابن العبري باسم السامرة (كذا) وهذه عبارته: «فلما جدّوا (أي الناس) في زمن بناء برج بابل في ذلك بأرض شنعار وهي السامرة...». راجع كتابه: مختصر الدول ص 19 من طبعة اليسوعيين في بيروت.

وعندها قوم من العرب، وأفهمنا أيضاً بأن من سامراء إلى بغداد أكثر شاطئي النهر مرصوف. والساعة 9 مرّ عن يسارنا كروان كبير من العجم كانوا في سامراء لزيارة مقام صاحب الزمان المهدي[1]، وكروان آخر من الموصل راجع إليها.

الساعة 11 أرسينا لمضادة الريح والملاحون اغتنموا الفرصة لنفخ القرب اللازمة، وكان ذلك بالقرب من قرية تدعى القادسية، وعند الظهر ارتحلنا، وبعد نصف ساعة شاهدنا في النهر قطعاً كبيرة من البنيان، ويظن بأنها بقايا جسر قديم.

والساعة 2 شاهدنا عن يسارنا خان المزراقجي[2]، وبه محافظون من قبل الحكومة، وكانت العرب على جانبي النهر تعرض علينا بعض المأكولات من خاثر اللبن وبطيخ وخلافهما، ويحضرونها إلينا سواء للبيع أو على نوع الكرم، أما مجيئهم إلى الكلك فكان على هذه الصورة المألوفة

---

(1) - في سامراء مرقد الإمامين العسكريين علي بن محمد الهادي وابنه الإمام الحسن العسكري ويضم المرقد إضافة إليهما السيدة نرجس زوجة الإمام العسكري وأم الإمام المهدي المنتظر، والسيدة حكيمة بنت الإمام محمد الجواد أخت الإمام علي الهادي وعمة الإمام العسكري، وكان قدوم الإمام علي الهادي إلى سامراء عام 234 هـ عندما أرسل المتوكل العباسي يحيى بن هرثمة، احد قواده، لاستدعائه من المدينة المنورة فصحب الإمام الهادي معه ابنه الإمام الحسن العسكري الذي كان له من العمر سنتان، ولما توفي الإمام الهادي مسموما عام 254 هـ 868 م دُفن في داره، ثم دفن بجواره ابنه الإمام الحسن العسكري الذي مات مسموما أيضاً عام 260 هـ 874 م.

(2) - يقع الآن ضمن حدود بغداد ويذهب البعض إلى انه هو نفسه خان الباجةجي.

عندهم، وهي أنهم يطرحون في الماء قربة منفوخة مسدودة سداً محكماً، ويلقي عليها الآتي صدره متمسكاً بها من تحت إبطيه، مسنداً ذراعيه عليها، و على إحدى يديه قدح اللبن واليد الأخرى لدفعه مع القربة بمساعدة رجليه، وهكذا كانت النساء منهم والبنات يأتين على هذه الصورة.

والساعة ،4 مررنا على أرض تدعى بعرورة، والساعة -5 نظرنا عن بعد خان الضلوعية[1]، وبقينا سائرين الليل كله وكنا نرى أحياناً نيران العرب على جانبي النهر.

---

[1] - خان مشهور قرب بغداد نسفته القوات الأميركية قبل سنوات قليلة وأزالته عن الوجود.

السندية

الجمعة في 31 تشرين الأول [سنة 1873م]

لبثنا سائرين كما ذكرنا الليل كله، وصباح هذا النهار أشرفنا على قرية «السندية»، وقبل وصولنا إليها رأينا طيراً كبيراً من الطيور التي كنا شاهدنا منها كثيراً على شاطئ النهر، فرماه أحد المحافظين بالرصاص فأصابه، وإذا هو ذو عنق طويل ومنقار عريض طوله 40 سنتيمتراً، أما طوله وهو مفتوح الأجنحة فمتران وتسعون سنتيمتراً، وقوته السمك واسمه النعاج، إنما المجذفون الأكراد فرحوا به وأكلوه مع أن رائحته كانت مكروهة.

والساعة >9 وصلنا إلى القرية المذكورة، ومركزها على شفير عالٍ لا يشاهد المسافر وهو في الكلك إلا نخيلها، فصعدنا إليها وكانت بيوتها متفرقة لأن كلاً منها ضمن بستان من النخيل، أما أبنيتها جميعها فكانت على هيئة أسوار بساتين دمشق وهي من اللبن والطين.

وقيل إن أهلها جميعهم من الشيعة، وتبعد عن بغداد براً نحو 8 ساعات، وأما في الكلك فيقتضي لها نحو 30 ساعة،

وبجانب القرية من جهة النهر يوجد أتون كبير، فتوجهنا إليه وإذا بالفعلة يفرغون من القرميد المشوي، وفهمنا منهم أنه يسع أربعين ألف قطعة وأنهم يبيعون الألف منها بسبعين غرشاً، وأنه يقتضي لإتمام عمل هذا القرميد نحو اثني عشر يوماً، ولا يوجد بهذه الجهات حجر للبنيان مطلقاً لعدم وجود الجبال، وعادة استعمال القرميد سواء المجفف بالشمس أو المشوي بالنار في هذه الجهات قديمة جداً، من عهد برج بابل كما ذكر في التوراة.

والساعة 1 بعد الظهر رأينا قرية «سعدية» وبها بساتين من النخيل، والساعة <3 قرية «المنصورية» وبساتينها كالأولى، وبتلك الجهات رأينا قففاً كالتي مر ذكرها بعضها مشحون بطيخ ومتوجه إلى بغداد، وبعضها آت منها لشحن هذا الصنف.

والساعة 6 مررنا على نهر صاب في دجلة يدعى الخالص، ومنه تبتدئ بساتين قرية الحواش، وجميعها نخيل فأرسينا هناك قليلاً.

والساعة 7 ارتحلنا، والساعة 9 مررنا على قرية الجديدة، وعزمنا بأن نسير الليل كله ليمكننا بأن نصل ثاني يوم إلى بغداد.

بغداد

السبت في 1 تشرين الثاني [سنة 1873م]

كما نسمع في الليل من جانبي النهر أصوات البكرات الكبيرة التي يسحبون بها الماء بقوة الدواب من النهر لسقي المزروعات، والساعة 7 شاهدنا قرية «الزياغيات» وبعدها بعشرين دقيقة قرية «أبي دالي» ، والساعة 9 قرية «قميرة» والساعة 10 قرية «فريجات» وبجانبها آلة بخارية لسقي الأراضي، وهي مختصة بالحكومة، ومن هناك شاهدنا عن بعد منارات الكاظم الأربع، وعند الظهر رأينا بلد الكاظم[1]، وجامعه وبساتين المعظم.

---

[1] - اي الكاظمية وتقع شمال العاصمة بغداد وعلى بعد 5 كم في الجانب الغربي منها، وعلى الضفة الغربية لنهر دجلة بجانب الكرخ. ويحدها من جهة الشرق نهر دجلة ، ومن الغرب أراضي الغرابية ، ومن الشمال اراضي التاجي ، ومن الجنوب اراضي المكيدات ، وترتبط بجانب الأعظمية بجسر حديث يعرف بجسر الأئمة، وترتبط من جهة الجنوب في منطقة الشالجية بجسر الصرافية بجانب الرصافة . وكانت تربطها بالعاصمة بغداد بسكة حديد حتى عام 1946 م. بنى أبو جعفر المنصور مدينة بغداد عام (145 هـ)، و جعل موضع الكاظمية مقبرة خاصة سماها مقبرة قريش الكبرى، ولما توفي ابنه جعفر الأكبر سنة (150 هـ) كان أول مَن دُفنَ فيها ، ولما توفي الإمام موسى الكاظم سنة (183 هـ) دُفِنَ فيها، حيث سميتَ المدينة باسم الكاظمية تيمنا باسم الإمام الكاظم.

والزرع على الشاطئ الأيمن كان من الأرز، وهناك أرانا المحافظون ثلاثة صناديق طويلة مطروحة على الأرض وملفوفة باللباد، وقالوا: يوجد ضمنها جثث أموات تنقلها العجم من بلادهم ليدفنوها في الكاظم، وهذا ثواب عظيم عندهم لأن أراضي الكاظم وخلافها في العراق يعتبرونها مقدسة.

والساعة 1 رأينا قرية المعظم وهناك مقام الإمام الأعظم أبي حنيفة أحد الأئمة الأربعة، والساعة 4 حللنا في بغداد وشكرناه تعالى على السلامة.

والمسافة من قبل الكاظم إلى بغداد جميعها بساتين وغياض على الشاطئين، والمنظر جميل جداً ومدخل المدينة بهيج للغاية، وعلى الخصوص عند دخول الكلك إلى المدينة.

والبيوت على الجانبين تطل على دجلة، الذي يقسم المدينة إلى قسمين أحدهما الكرخ على اليمين، والثاني الرصافة على اليسار.

هذا ما قصدنا إدراجه في هذه الرحلة القصيرة التي هي عبارة عن تذكرة للمسافر فقط، ولم نقصد بها التطويل والتمنيق، لأننا لم نذكر إلا ما شهدناه عياناً وأمكننا أخذه بالقلم مع انهماكنا بمهام السفر.

كما أننا لم نتصد لشرح تاريخي عن الأمكنة التي مررنا بها، لأن ذلك يحتمل مجلدات برمتها، حال كون نفس بغداد اقتضى لتاريخها مجلدات شتى.

أما حال هذه المدينة الآن فهو لسوء الحظ بعيد جداً عما كان في الأزمنة السالفة. لأنه بعد أن كره المنصور وهو ثاني الخلفاء العباسيين سكنى الهاشمية، وابتدأ سنة خمس وأربعين ومائة في بناء بغداد، أضحت هذه المدينة مجمع العلوم والفنون ومحور التمدن، ولبثت على هذه الحالة زمناً طويلاً إلى أن ملكها هولاكو ملك التتر سنة 656 للهجرة، وقتل المستعصم بالله السابع وثلاثين من الخلفاء العباسيين وأضرهم، ودام القتل والنهب في المدينة نحو أربعين يوماً ثم نودي بالأمان.

وكانت هذه الحادثة أكبر نكبة وأعظم مصيبة جرت على دار الخلافة ذات الجمال والجلال، وهدمت أركانها وذهبت برونقها وشتت شمل سكانها وجعلتها خراباً بعد أن كانت زهر العواصم ووردة البلدان.

ويُكتفى للاختصار ما نعتها به صاحب مراصد الإطلاع[1]، قال: إن بغداد كانت أم الدنيا وسيدة البلاد حتى جاء التتر إليها فخربوا أكثرها وقتلوا أهلها كلهم فلم يبق منهم غير أحاد

---

[1] - مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة و البقاع، لعبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي المتوفى سنة 739هجرية، وهو مختصر معجم البلدان لياقوت الحموي.

كانوا نموذجاً حسناً، وجاء أهل البلاد فسكنوها وباد أهلها، وهي الآن غير التي كانت والحكم لله تعالى.

أي بعد أن قتل أهلها الأصليون وتشتت شملهم اجتمع إليها من كل ما جاورها من البلاد من أجناس مختلفة وسكنوها ودليل ذلك مقرر إلى الآن، وهو أن في لغتهم العربية توجد مئات من الكلمات الأعجمية كالتركية والفارسية والكردية، حتى من اللغات الإفرنجية كالإنجليزية والفرنساوية، وقد باشرنا من وصولنا إليها بجمع هذه الكلمات فبلغت إلى الآن نحو 250 كلمة[1].

أما أهلها في الحاضر فمنهم أفراد معتبرون ذوو فضل وفضيلة من مشاهير العلماء الحائزين على الاعتبار العام، سواء من جهة المعارف والفنون أو من جهة الصفات والآداب. وأما الأكثرون فعندهم ذكاء طبيعي لا ينقصه لتمام جلائه وإظهار إشراقه إلا سبكه بآلة العلم والمطالعة، وكنا نود أن نرى عندهم مدارس أكثر أهمية من التي عندهم الآن وهذا نتمناه لهم من صميم فؤادنا .

---

(1) – لا نعلم بوجود دراسة لنيقولا سيوفي تتعلق بالمفردات غير العربية في اللهجة البغدادية، ولعله لم يكمل مشروعه.

ملحق الصور

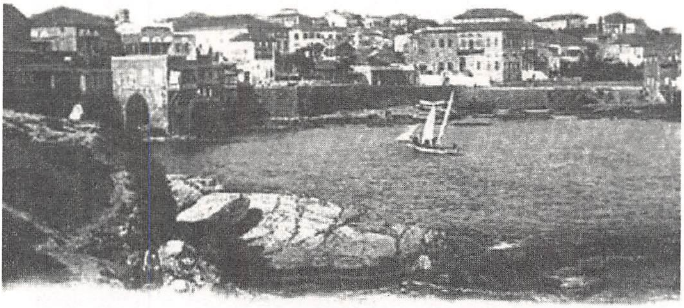


صورة للقنصل نيقولا بيك سيوفي أهداها إلى قريبه ميخائيل سيوفي

مؤرخة بـ **9**/آب / **1873** أي قبل رحلته بشهر واحد

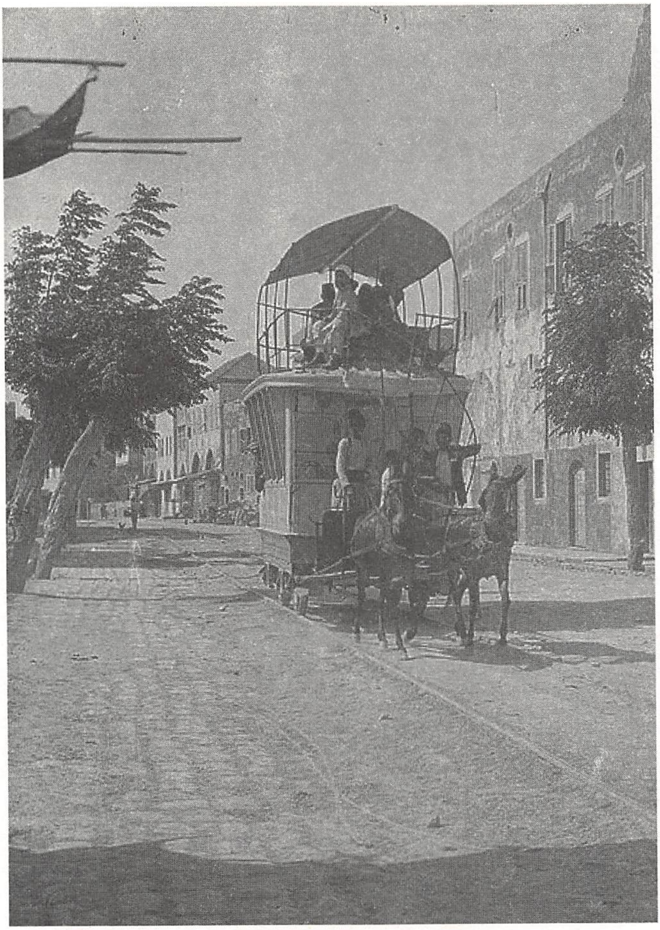


الأمير عبد القادر الجزائري وبعض أفراد حاشيته ومنهم نيقولا سيوفي الواقف ورائه مباشرة وعلى يساره يقف الضابط في الجيش الفرنسي جورج بولاد الدمشقي الذي انتدبته الحكومة الفرنيسة لحماية الأمير في ستينيات القرن التاسع عشر

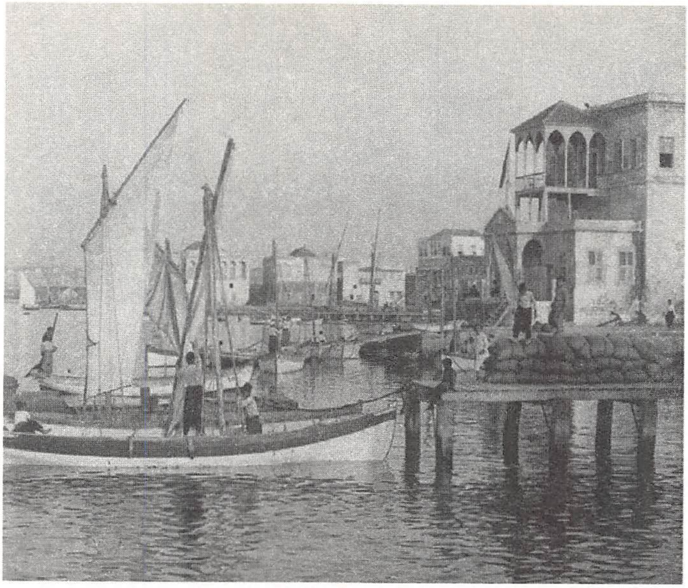




بيروت أواخر القرن التاسع عشر

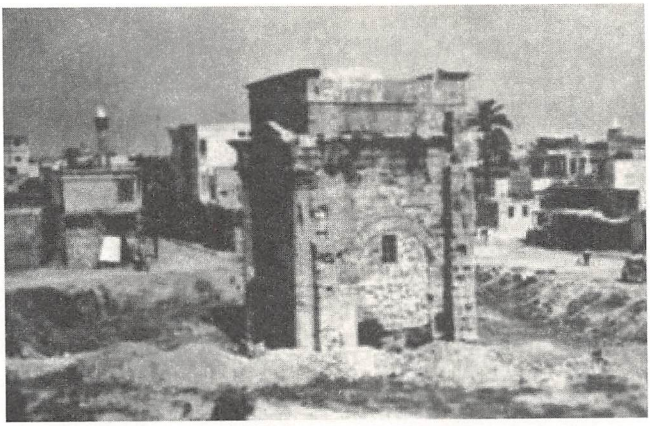


عربة كورسة في طرابلس أواخر القرن التاسع عشر





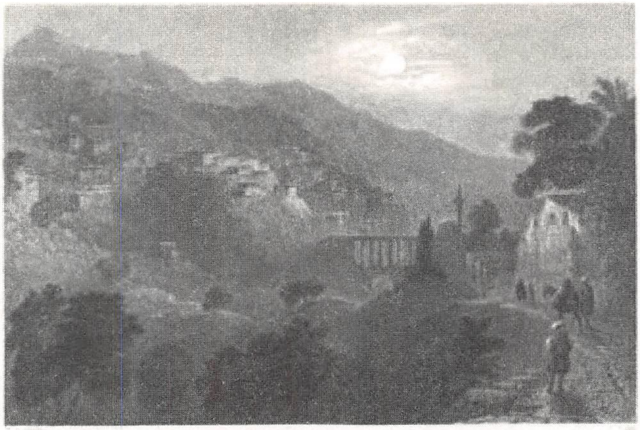
طرابلس في أواخر القرن التاسع عشر



اللاذقية أواخر القرن التاسع عشر



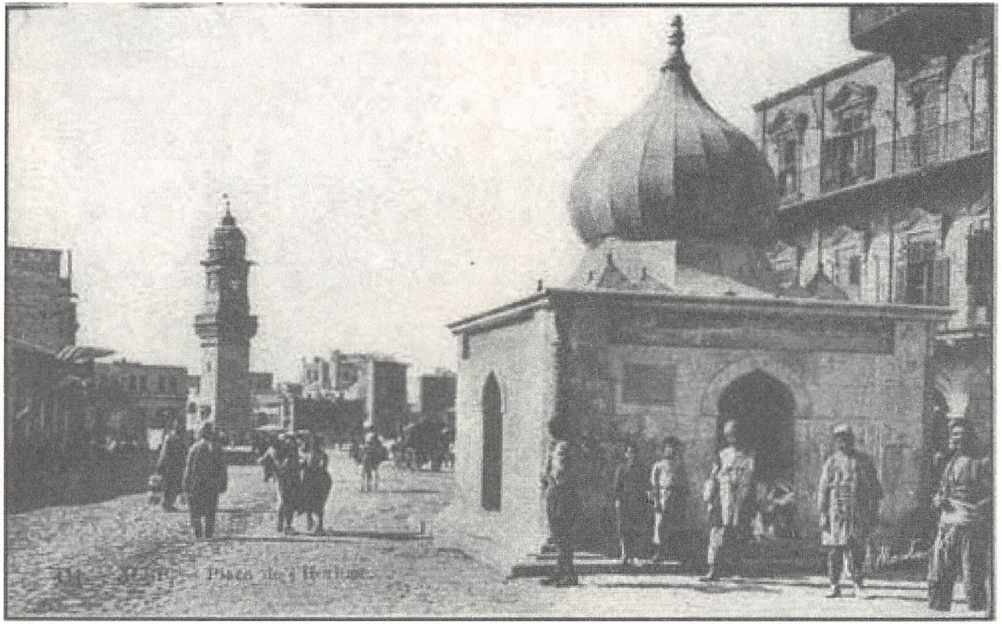
عقبة بيلان ويبدو البحر من ورائها أواسط القرن التاسع عشر



جسر في بيلان أواسط القرن التاسع عشر



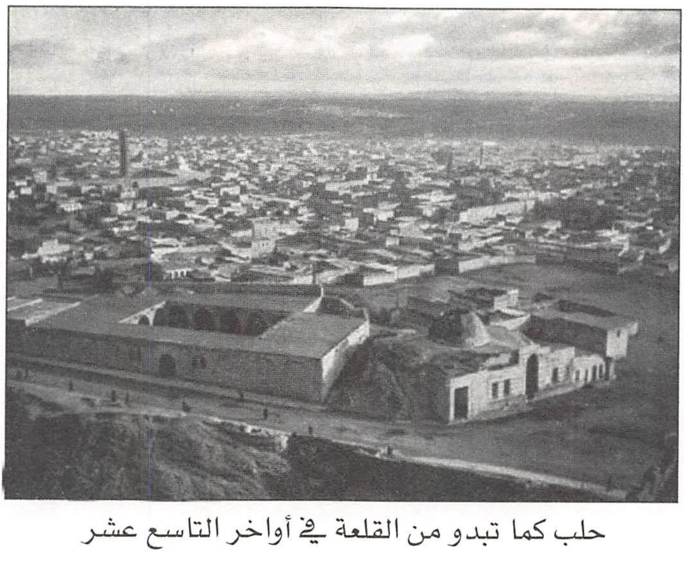
شلالات قرب انطاكية أواسط القرن التاسع عشر



باب الفرج في حلب أواخر القرن التاسع عشر



قلعة حلب



حلب كما تبدو من القلعة في أواخر التاسع عشر



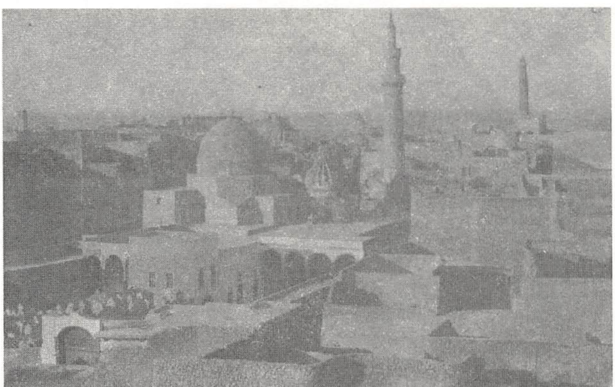
مقهى في ديار أواخر القرن التاسع عشر



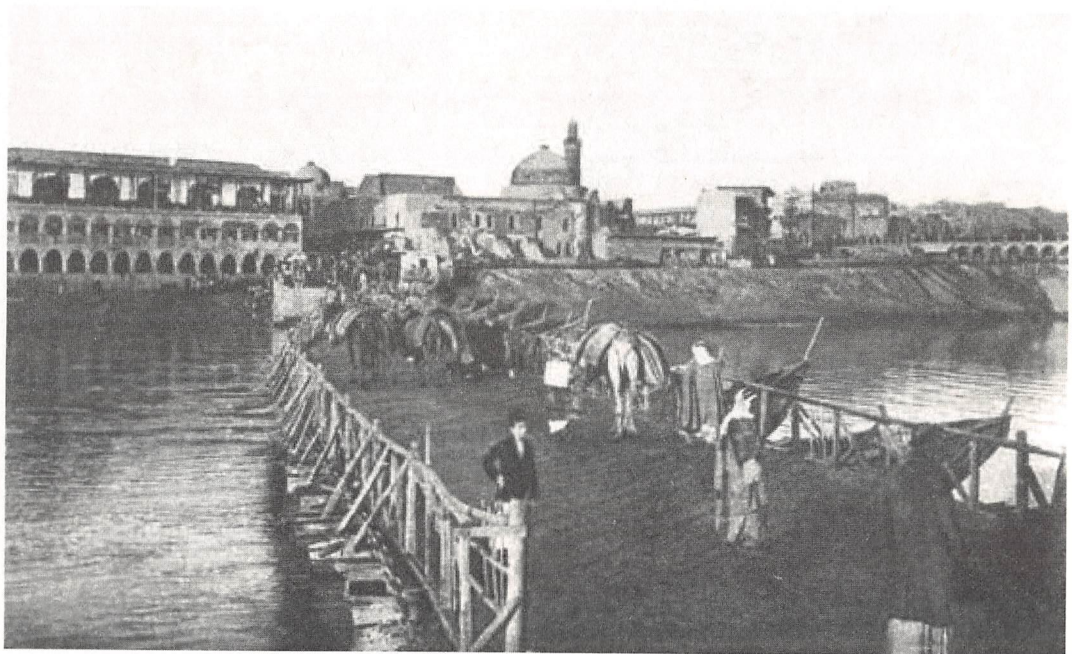
إمرأة كوردية تحمل طفلها أواخر القرن التاسع عشر



بقايا جسر حجري قرب الموصل في أواخر القرن التاسع عشر



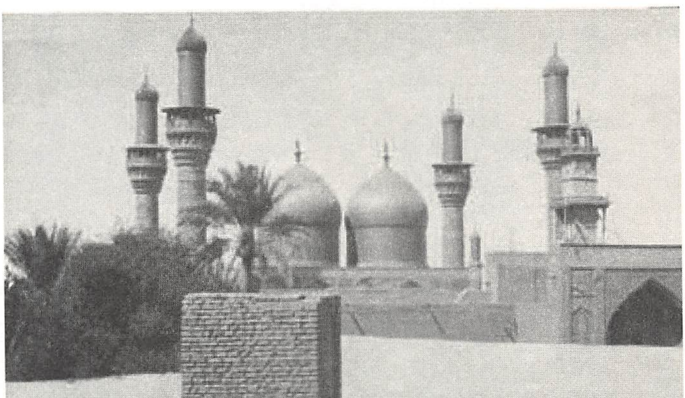
الموصل أواخر القرن التاسع عشر



جسر في مدينة الموصل أواخر القرن التاسع عشر



الزوارق النهرية التي تسمى «قفف» جمع قفة والتي شاهد نيقولا سيوفي في تكريت وبغداد في أواخر القرن التاسع عشر



مسجد الكاظمية في بغداد في القرن التاسع عشر

الأماكن والأعلام